

الفصل الثالث
مظاهر تقدم العلوم
الإنسانية والتطبيقية

obeykandi.com

الفصل الثالث

مظاهر تقدم العلوم الإنسانية والتطبيقية

أولاً: العلوم الإنسانية

علوم اللغة والنحو والأدب

حفلت مدن الصغد خلال العصر السلجوقي بعدد كبير من علماء اللغة والنحو والأدباء والشعراء الذين خلفوا ثروة أدبية ضخمة.

اللغة (١)

اللغة من أكرم النعم التي أسبغها الله عز وجل على الإنسان في خلقه وجعلها خاصته التي تميز بها عن غيره من مخلوقات الحياة غير الجن والملائكة، فهي سبيل ووسيلة اتصاله بمحيط أسرته وحيه وبلده والبشرية من حوله، ووسيلة نقله أفكاره ونظراته وأحاسيسه وعواطفه.

(١) اللغة: نظام من الرموز الصوتية، وعرفها اللغوي العربي ابن جني بأنها "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" * واللغة في الاصطلاح علم يعرف به أوضاع الكلمة العربية حيث تأليف حروفها، واشتقاقها ودلالاتها على معناها، وهل هي مشتركة بين عدة معان أو مختصة بمعنى واحد لا تدل على غيره وفائدتها معرفة وجوه الكلام العربي ومراتب فصاحته نثراً ونظماً مما يعين على فهم كلام الله وسنة رسوله ** . وعرفه ابن حجة الحموي: بقوله إن علم اللغة هو البحث عن المعنى الذي وضع له اللفظ *** .

* محمود فهمي حجازي: المدخل إلى علم اللغة، دار الثقافة القاهرة، ١٩٧٦م، ص ١١.
** أبو بكر جابر الجزائري: العلم والعلماء، دار الكتب العلمية بيروت، دار الكتب السلفية القاهرة، ص ٧٢.

*** ابن حجة الحموي: خزانة الأدب وغاية الأرب، ج ١، ط ٢، بيروت، ١٩٩١م،

ص ٢٣.

كما هي القالب الذي تفرغ فيه الأمة أفكارها ومفاهيمها وثقافتها ومعتقداتها وعواطفها وأمجادها. وبعبارة أخرى اللغة هي المرآة التي تعكس في جرس ألفاظها ونغمات تعابيرها وطريقة أدائها خصائص المتكلمين بها وصفاتهم وملامح شخصيتهم ومعالم تفكيرهم وعقليتهم وسمات طبائعهم وعاداتهم وأخلاقهم^(١).

كان اهتمام المسلمين بتفسير القرآن الكريم دافعا لأن يهتموا اهتماما بالغاً بعلوم اللغة، ولم يزل الأئمة من الصحابة ومن تلاهم من التابعين يحضون على تعلم العربية وحفظها، والرعاية لمعانيها؛ إذ هي من الدين بالمكان المعلوم، فبها أنزل الله كتابه المهيمن على سائر كتبه، وبها بلغ رسوله ﷺ وظائف طاعته وشرائع أمره ونهيه^(٢).

أصبحت اللغة العربية في فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، لغة عالمية استوعبت مجالات التعبير في فروع المعرفة المختلفة، ألف بها مؤلفون من جماعات لغوية مختلفة، وكانت العربية الوسيلة المشتركة للتعبير عندهم جميعاً. والتراث العربي في الواقع ثمرة جهود مؤلفين ينتمون إلى مناطق كانت لها لغاتها المحلية ولكن هذه اللغات لم يكن استخدامها يتجاوز الحياة اليومية، فقد كانت اللغة العربية لغة العلم والثقافة بلا منافس^(٣). وظلت

(١) السيد محمد صديق حسن خان القنوجي: البلغة في أصول اللغة، تحقيق نذير محمد مكتبي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٩٩٨م، ص ٥.

(٢) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ص ١٢.

(٣) رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ترجمة محمد موسى هنداوي، دار الفكر العربي ١٩٤٧م، ص ١٤. محمود فهمي حجازي: اللغة العربية عبر القرون، ط ٢، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٥٧.

هكذا حتى أواخر القرن الثالث الهجرى تقريبا، حتى أخذت القومية الفارسية تنهض وتحاول أن تحيي معها اللغة الفارسية الحديثة التي اعتمدت على اللغة العربية في كثير من كلماتها واصطلاحاتها^(١)، وبدأت اللغة الفارسية تنافس اللغة العربية في بلاد ما وراء النهر في منتصف (ق٤٤هـ/ ١٠م) وبدأ الأدب الفارسي في التطور وزاد استخدام اللغة الفارسية في التأليف، واستخدمت اللغة العربية بصورة مطردة في العلوم الأساسية وأصبحت اللغة الفارسية لغة الدولة ولغة المؤلفات التاريخية والأدبية^(٢) غير أن العربية مع هذا لم تضعف شأنها، بل كان لها الرجحان على الفارسية لكونها لغة القرآن الكريم والعلوم الدينية التي أنصب عليها الاهتمام خاصة خلال العصر السلجوقي^(٣).

الجدير بالذكر أن المؤلفات الفارسية اعتمدت اعتمادا كبيرا على المصطلحات العلمية العربية، فكانت العربية هي لغة الأساس أو اللغة المصدر التي أخذوا منها المصطلحات أو اشتقوا من موادها اللغوية مصطلحات جديدة، ومن هذا المنطلق كانت العربية تقوم بدور قيادي^(٤). ولا شك أن العصر السلجوقي في مدن إقليم الصغد كان من عصور الازدهار العلمي

(١) حسين مجيب المصرى: صلات بين العرب والفرس والترك، الدار الثقافية، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٨٥. فؤاد عبد المعطى الصياد: دور الفرس في بناء الحضارة الإسلامية، ص ٧٩. محمد نور الدين عبد المنعم: دراسات في الشعر الفارسي حتى القرن الخامس الهجرى، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ١٤.

Frye, The Heritage of Persia, History of civilisation , p251,252. Wickens, Persian Literature, An Affirmation of Identity Introduction Islamic civilisation, p72.

(٢) محمود فهمى حجازى: المرجع نفسه، ص ٥٧. نور الدين آل على: دروس اللغة والأدب الفارسي، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ١٧

Lapidus, A History of Islamic Societies, c.3, U.S.A, 2002, p126.

(٣) حسين مجيب المصرى: المرجع نفسه، ص ١١٥.

(٤) محمود فهمى حجازى: اللغة العربية عبر القرون، ص ٥٨.

والعطاء والتطور في خدمة اللغة العربية، ذلك أن العلماء انطلقوا في مرحلة التفاعل الحضارى والنضج إلى حيث أخرجوا الموسوعات الضخمة والمعاجم الجامعة، فحق أن يدعى لذلك العصر أنه عصر الموسوعات؛ إذ كان شعور العلماء فيه باشتداد ضعف ملكة اللسان، وحاجة النشء في تنشئته على الملكة الصحيحة واستيعاب علوم العصر دافعا للقوم أن يهتموا باللغة ووضع المعاجم من أجل ذلك^(١).

ظلت اللغة العربية خلال العصر السلجوقي لغة الثقافة والنتاج الفكرى أما لغة الدولة فكانت اللغة الفارسية. وكان يلاحظ أن مؤلفى الكتب العربية فى هذه الفترة لديهم تدين شديد جعلهم يذكرّون أن أشرف العلوم علم الكتاب والسنة وأن اللغة العربية مفتاح الدراسات الدينية^(٢).

بلغ علم اللغة فى مدن الصغد خلال العصر السلجوقي قمة ازدهاره، وصال فى ميدانه وجال عدد من كبار علماء العصر أمثال الإمام أبو القاسم على بن أبى يعلى بن زيد حمزة الدبوسى (ت ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م) كان من كبار مشايخ الشافعية إماما فى الفقه والأصول واللغة والبلاغة، درس بنظامية بغداد، وأملى مجالس وتفقه عليه جماعة^(٣) والشيخ الإمام أبو حفص نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل أبو حفص النسفى (ت ٥٣٧هـ / ١١٤٢م). كان إماما فاضلا متفتنا صنف فى كل نوع من العلم، وصنف فى اللغة كتاب طلبه الطلبة ذكر فيه ألفاظ الفقه فى كتب الحنفية- لغة الفقهاء-^(٤).

(١) إبراهيم على أبو الخشب: تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى، ص ٣٩.

(٢) نظام الملك: سياست نامه، ص ٣.

(٣) الأسنوى: طبقات الشافعية، ج ١، ص ٢٥٥. الذهبى: سير أعلام النبلاء، ج ١٩،

ص ٩١ - ٩٣. السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٥، ص ٢٩٦، ٢٩٧. ابن

الصلاح الشهرزورى: طبقات الفقهاء الشافعية، ج ٢، ص ٨١٨. ابن كثير: طبقات

الفقهاء الشافعية، ج ٢، ص ٤٨٣.

(٤) طاش كبرى زاه: مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ج ١، ص ١٢٧. القرشى: الجواهر=

ويعد أبو القاسم محمود بن علي نصر بن أبي يعمر الأديب النسفي نزيل سمرقند (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) من كبار اللغويين، أديبا فاضلا وكان خيرا صالحا، صدوقا^(١). وعلى بن محمد بن طاهر بن علي بن تراب التميمي الكرميني (ت ٥٥٦هـ / ١١٦٠م) كان أحد الأئمة الكبار، أديبا عظيما، حافظا لأصول اللغة، عديم النظير في زمانه، كما كان ورعا عفيفا كثير التلاوة، متقنا لما ينقله^(٢). كما كان أبو بكر عتيق بن عبد العزيز السمرقندي ثم النيسابوري الأديب الأوحده (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م) من كبار اللغويين، أديبا شاعرا حسن النظم، له المحفوظات في اللغة، سمع عبد الغفار بن شرويه وأبا بكر الحسين الأديب^(٣) وأبو بكر بن أبي الحسن عبد الله بن علي بن صائغ بن عبد الجليل بن الخليل بن أبي الفرغاني (ت ٦١٦هـ / ١٢١٩م) سكن سمرقند وكان يتولى الخطابة بها، وكان إماما كبيرا في المذهب والخلاف والحديث واللغة والنحو مع فصاحة اللسان وعدوية الألفاظ، وكان حسن الصورة، لطيف الأخلاق، وله النظم والنثر الجيد^(٤).

ومن أئمة علماء اللغة محمد بن سليمان بن قترمش السمرقندي (ت ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) كان أديبا فاضلا لغويا متفنا مليح الكتابة، أخذ من كل فن من العلم بنصيب وافر. وكان من أبناء الأمراء ولى الحجابة الكبرى

=المضية، ج٢، ص ٦٥٧، ٦٥٩. ابن قطلوبغا: تاج التراجم، ص ١٦٣. الزركلي:

الأعلام، ج٥، ص ٦٠.

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣٨، ص ٣٧٠. السمعي: التحيير في المعجم الكبير، ج٢، ص ٢٨٦.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣٨، ص ٢٠٣. السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ج٢، بيروت، ص ١٨٩.

(٣) الذهبي: المصدر نفسه، ج٣٨، ص ٣٠٧، ٣٠٨. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٩، ص ٤٥٩. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٢، ص ٣٣.

(٤) السيوطي: المصدر نفسه، ج٢، ص ٥٠. القرشي: الجواهر المضية، ج٢، ص ٣١٤.

ببغداد^(١). وأبو الوحدة العمادى محمد بن عبد الستار بن محمد شمس الأئمة الكردي الخوارزمي (ت ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م) كان أستاذ الأئمة على الإطلاق والموفود عليه من الآفاق، نزيل سمرقند، قرأ العربية بخوارزم على الشيخ برهان الدين ناصر بن أبي المكارم عبد السيد بن علي المطرزي صاحب المغرب والمغرب، وتفقه بسمرقند على شيخ الإسلام برهان الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني والشيخ مجد الدين السمرقندي الذي عرف بإمام زاده^(٢).

كما يعد العلامة رضى الدين أبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن ابن حيدر بن علي ابن إسماعيل العدوى الصاغانى أصله من بلاد الصغد، من كبار اللغويين ولد سنة (٥٧٧هـ / ١١٨١م) ببلهور من بلاد الهند، ونشأ بغزنة ورحل إلى بغداد طلبا للعلم ودخل اليمن، وكان إليه المنتهى فى علم اللغة ومعرفة اللسان العربى، وله مؤلفات كثيرة تدل على سعة الاطلاع وامتداد آفاق البحث والإحاطة بأطرافه، ومن مؤلفاته فى اللغة كتاب مجمع البحرين فى اللغة فى اثنى عشر مجلدا، وكتاب العباب الزاخر واللباب الفاخر وهو معجم كبير فى عشرين جزءا من أشهر معاجم اللغة، ومات قبل إكماله وانتهى فيه إلى فصل (ب ك م) من حرف الميم فقال فى ذلك بعد أدباء بغداد:

إن الصاغانى الذى حوى - حاز - العلوم والحكم
كأن قصارى أمره أن انتهى إلى بكم^(٣)

(١) الذهبى: المصدر نفسه، ج٤٤، ص٥٠٩. سامى محمد صالح الدلال: تقريب تراجم تاريخ بغداد مع ذليله واستفادات الدمياطى، مج٤، القاهرة، ١٩٩٢، ص٣١٤. المتولى ابن رمضان أحمد الدميرى: الضوء الكاشف فى ترتيب نحاة البغية تاريخيا مع ذكر مؤلفاتهم، القاهرة، ١٩٩٢، ص١٦٢.

(٢) ابن قاضى شهبه: طبقات النحاة واللغويين، ص١٦٦.

(٣) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، ج٥، ١٩٨٨م، ص١٢١، ١٢٢. الصاغانى: التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة =

كما ألف كتاب التكملة والذيل والصلة فى اللغة، وسار فى ترتيب المواد اللغوية على حسب الحرف الأخير من الكلمة على نظام الباب والفصل، وتقع التكملة فى ستة أجزاء. وله كتاب الشوارد فى اللغات، وكتاب الأضداد، وكتاب أسماء الأسد، وكتاب أسماء الذئب، وكتاب النوادر فى اللغة، وغير ذلك وكان شيخا صالحا توفى (١٢٥٢هـ/١٢٥٢م)^(١).

خلاصة القول كانت اللغة العربية التى أنزل الله بها كتابه، لغة تضمنت من عناصر الخلود ومعانى البلاغة، وبراعة التصوير وقوة البيان ما يجعلها قادرة على أن تحول الشعوب، ومن ثم كانت هذه اللغة بمثابة التربة الخصبة للتتاج الفكرى الإسلامى خلال العصر السلجوقى .

علم النحو

هو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى، مطلقا بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب وقوانين مبنية عليها، ليحترز بها عن الخطأ فى التركيب من حيث تلك الكيفية^(٢). والنحو إذا هو قانون اللغة، وميزان تقويمها^(٣).

=وصحاح العربية، تحقيق عبد العليم الطحاوى، مج ١، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٦، ٧. اللكنوى: الفوائد البهية، ص ٦٣. ياقوت الحموى: معجم الأدباء، مج ٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١، ص ٩٤. اليمانى: إشارة التعيين فى تراجم النحاة واللغويين، ص ٩٨. عبد الصاحب عمران الدجيلى: أعلام العرب فى العلوم والفنون، ج ٢، ط ٢، العراق، ١٩٦٦، ص ٧٢، ٧٣.

(١) الصاغانى: المصدر نفسه، مج ١، ص ٦٠٧. الكتبى: فوات الوفيات والذيل عليها، ج ١، ص ٣٥٩، ٣٦٠. اليمانى: المصدر نفسه، ص ٩٩. عبد الصاحب عمران الدجيلى: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٧٣.

(٢) السكاكى: مفتاح العلوم، تعليق نعيم زرزور، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ص ٧٥.

(٣) الفلقشندى: صبح الأعشى، ج ١، ص ١٦٧.

فلم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها وماض جاهليتها حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان، فدخل الناس فيه أفواجا، واتسعت الفتوحات الإسلامية واختلط العجم بالعرب واندمج بعضهم في بعض، فبدأ التغيير في ملكتهم، وظهر اللحن في لغتهم وتسربت العجمة إلى لسانهم، فخشى العلماء أن تفسد اللغة، وتدمروا مما كانوا يسمعون من اللحن وخصوصا في قراءة القرآن وأحسوا بالحاجة إلى ما يصون لغتهم من اللكنة، ولسانهم من اللحن والعجمة، فوضعوا علم النحو وتعللوا في وضعه عناية منهم بالقرآن، وحرصا على نطقه بلسان عربي ميين^(١).

هكذا نشأ علم النحو نتيجة اختلاط العرب بالأعاجم عندما دخل كثير منهم في الإسلام عندئذ ظهرت الحاجة إلى وضع قواعد تعصم اللغة العربية من الخطأ^(٢) واهتم علماء مدن الصغد في العصر السلجوقي بدراسة علم النحو وحفلت بظهور طائفة كبيرة من علماء النحو وكان ذلك طبيعيا لتسلط الأعاجم وشيوع لغتهم الفارسية ومزاحمتها اللغة العربية، ونخص بالذكر منهم الإمام أبا القاسم علي بن أبي يعلى بن زيد حمزة الدبوسي (ت ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م) كان من كبار أئمة الشافعية متفردا في النحو والأصول واللغة والبلاغة، مع التفنن في أصناف العلوم وحسن المعتقد، وكان حسن الخلق والخلق سمحا جوادا كثير المحاسن قدم بغداد وولى تدريس النظامية تفقه عليه جماعة من البغداديين والغرباء^(٣).

(١) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ١١. أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٢٣. أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٢٢٣.

(٢) عبد الحميد العبادي وآخرون: الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها، ص ٤٨.

(٣) الأسنوي: طبقات الشافعية، ج ١، ص ٢٥٥. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ٩١ - ٩٣. السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٥، ص ٢٩٦، ٢٩٧. ابن الصلاح الشهرزوري: طبقات الفقهاء الشافعية، ج ٢، ص ٨١٨. ابن كثير: طبقات الفقهاء الشافعية، ج ٢، ص ٤٨٣.

كما كان من أشهر النحويين الشيخ الإمام أبو محمد عطاء ملك بن عبد الجبار بن أبي طاهر بن المفتى بن علي بن أبي الأشعث بن موسى النحوى (ت ٥١٢هـ / ١١١٨م) نزيل سمرقند ذكره النسفى وقال: قرأ السمعانى بخط الإمام أبى محمد عطاء مالك بن عبد الجبار بسمرقند فهرست مصنفات أبى عبد الله الحسين بن أبى الحسين الكاشغرى المعروف بالفضل فسردها وهى فى التفسير والفقه والرقائق والنحو وغيرها يزيد على مائة وعشرين مصنفًا^(١).

كذلك يعد أبو القاسم محمود بن علي نصر بن أبى يعمر الأديب النسفى نزيل سمرقند (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) نحويًا فاضلاً خيراً صالحاً، صدوقاً، سمع أبا بكر محمد بن أحمد البلدى، قال عبد الرحيم بن السمعانى: سمعت منه أخبار مكة للأزرقي^(٢).

وكان أبو الفضل محمد بن عمر بن محمد بن العباس بن علي الاشيخنى السمرقندى النحوى الأديب (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م)، أديباً نحويًا بارعاً صالحاً، كتب بنفسه أمالى أئمة سمرقند^(٣). وأبو المعالى بن عطاء الملك ابن عبد الجبار بن أبى طاهر السمرقندى الخطيب النحوى (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م)، كان من كبار النحويين، سمع أباه وأبا بكر محمد بن أحمد البلدى وأبا القاسم عبيد الله الكشانى^(٤). وأبو بكر بن أبى الحسن عبد الله بن علي بن صائى ابن عبد الجليل بن الخليل بن أبى الفرغانى (ت ٦١٦هـ / ١٢١٩م) سكن سمرقند، وكان من أشهر النحويين^(٥). ومن بينهم محمد بن سليمان

(١) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص ٥٨٤.

(٢) الذهبى: تاريخ الإسلام، ج ٣٨، ص ٣٧٠. السمعانى: التحبير فى المعجم الكبير، ج ٢، ص ٢٨٦.

(٣) الصفدى: الوافى بالوفيات، ج ٤، ص ٢٤٦.

(٤) الذهبى: تاريخ الإسلام، ج ٣٨، ص ٣٥٤.

(٥) السيوطى: بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، ج ٢، ص ٥٠. الصفدى: المصدر

نفسه، ج ١٧، ص ٣٣٢، ٣٣٣. القرشى: الجواهر المضية، ج ٢، ص ٣١٤.

ابن قترمش السمرقندى (ت ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) كان نحويا وأديبا فاضلا متفننا مليح الكتابة، وأخذ من كل فن من العلم بنصيب وافر، إلا أنه كان قليل الدين^(١).

ومن أئمة علماء النحو العلامة رضى الدين أبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن على بن إسماعيل العدوى الصاغاني (ت ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م) كان من كبار النحويين، رحل في طلب العلم وصنف التصانيف الكثيرة، ومنها: كتاب فى التصريف وله كتاب فعال على وزن حذام، وكتاب فعالان على وزن شنان، وكتاب الانفعال، وكتاب يفعول، وكتاب التراكيب^(٢).

صفوة القول كان لعلم النحو فوائد جمة لمعرفة اللسان العربى الذى نزل به القرآن الكريم وبينه رسوله للأمة، فبمعرفة اللسان العربى تعرف شريعة الله التى وجب معرفتها والعمل بها، امثالاً لقول الله تعالى " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"^(٣) وقوله عز وجل " نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ"^(٤) كما روى عن عمر بن الخطاب أنه قال: "رحم الله امرأً أصلح من لسانه وقال أيضاً: تعلموا العربية فإنها تثبت

(١) الذهبى: المصدر نفسه، ج٤٤، ص٥٠٩. سامى محمد صالح الدلال: تقريب تراجم

تاريخ بغداد مع ذليله واستفادات الدمياطى، مج٤، ص٣١٤. المتولى بن رمضان أحمد

الدميرى: الضوء الكاشف فى ترتيب نحاة البغية تاريخياً مع ذكر مؤلفاتهم، ص١٦٢.

(٢) الصاغاني: التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية، مج١، ص٦٧،

الكتبى: فوات الوفيات والذيل عليها، ج١، ص٣٥٩، ٣٦٠. ياقوت الحموى: معجم

الأدباء، مج٣، ص٩٤. اليمانى: إشارة التعيين فى تراجم النحاة واللغويين، ص٩٨،

٩٩.

(٣) يوسف: آية٢.

(٤) الشعراء: آية١٩٣-١٩٥.

العقل^(١). من هذا المنطلق اهتم العلماء فى مدن إقليم الصغد بدراسة اللغة والنحو للتعرف على الشريعة الإسلامية. ولما كان البحث فى مجال العلوم الدينية يتطلب سعة اطلاع فى حقل اللغة العربية فقد اكتسبت هذه اللغة قوة، نظراً للارتباط الوثيق بين علم اللغة والنحو من ناحية والعلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير من ناحية أخرى .

الأدب^(٢)

هو الإجابة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ويستقرى منها الناظر فى الغالب معظم قوانين العربية^(٣). ارتقى الأدب الفارسى فى مدن الصغد فى عصر السلاجقة وزاد عدد الشعراء والكتاب نتيجة تشجيع الحكام وكبار رجال الدولة^(٤) الذين رأوا أن وجودهم فى البلاطات من جملة لوازم الرياسة، وأن فضل البلاط على غيره يقاس بعدد من فيه من أدباء^(٥).

جدير بالذكر أن كثيراً من السلاجقة كانوا لا يعرفون اللغة الفارسية،

(١) ابن الأحمر: أعلام المغرب والأندلس، تحقيق محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٦، ص ٥٢. القرطبي: بهجة المجالس وأنس المجالس وشحد الذاهن والهاجس، مج ١، ص ٦٤.

(٢) لغة مصدر أدب يادب أدبا إذا ظرف وتهذبت أخلاقه فهو أديب، واصطلاحاً: علم يقتدر به صاحبه على التصرف فى وجوه الكلام العربى المنظوم منه والمنثور فيكتب ويخطب ويحاضر ويحدث بعيداً عن الخطأ والخلل فيه. وطريقة تحصيل هذا الفن بعد معرفة اللغة وعلومها من نحو وصرف وبلاغة والإكثار من الجيد من كلام العرب المنثور والمنظوم والتعرف فى وجوهه كتابة وخطابة. أبو بكر الجزائرى: العلم والعلماء، ص ٧٢، ٧٣.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٦١٢.

(٤) رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، ص ١١٨.

(٥) أحمد كمال الدين حلمى: عمر الخيام عصرًا وبيئةً ونتاجًا، ص ٥٤.

لأنها ليست لغتهم الأصلية، فكانوا لا يستطيعون فهم الأدب وتذوقه، غير أنهم كانوا يشجعون الأدباء من كتاب وشعراء ويجزّلون لهم العطاء ليكثروا من مدحهم والثناء عليهم، فيبقى ذكرهم على مر السنين^(١) وكان السلطان سنجر كثير العطاء للشعراء والفضلاء، وأن المدائح التي دارت حوله لم يحظ بها أى من الملوك الآخرين^(٢).

حذا حكام الأقاليم فى بلاد ما وراء النهر، وكبار رجال الدولة فى العصر السلجوقى حذو السلاطين فى تشجيع الأدباء، فكانوا يعطونهم بسخاء، فراجت سوق الأدب رواجاً كبيراً فى مدن إقليم الصغد فى هذا العصر، وتفنن الشعراء والكتاب فى صناعة الأدب فوصل فن الأدب الفارسى إلى درجة رفيعة من الرقى والتقدم وكثر عدد الشعراء والكتاب النابهين الذين ذاعت شهرتهم فى أرجاء العالم الإسلامى كله فى ذلك الوقت^(٣).

ومما ساعد على توسعة دائرة الأدب وساهم فى رواجه فى إقليم الصغد فى العصر السلجوقى أن النثر والشعر كانا متداولين فى الخانقاوات ويستخدمهما الصوفية فى مؤلفاتهم لإرشاد الناس وهدايتهم^(٤). ومن ثم كان للأدب شعره ونثره دور "مهم" فى التعبير عن الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى مدن إقليم الصغد؛ إذ إنه المرأة التى تنعكس عليها أحداث كل عصر. ونظراً للصراع المذهبى الذى نشب بين

(١) عبد النعيم محمد حسين: إيران والعراق فى العصر السلجوقى، ص ١٨٩.

(٢) محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى وشعره الجاد، ص ٥٩.

(٣) عبد النعيم محمد حسين: إيران والعراق فى العصر السلجوقى، ص ١٨٩.

(٤) أحمد كمال الدين حلمى: عمر الخيام عصرًا وبيئةً وتاجاً، ص ٥٤. ذبيح الله صفا: خلاصة تاريخ سياسى واجتماعى وفرحنىكى إيران، تهران، ٢٥٣٦، ص ١٦٠. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، ص ١١٨. قاسم غنى: تاريخ التصوف فى الإسلام، ص ٦٦٣.

المذاهب الإسلامية والفرق والملل والنحل التي انتشرت في العالم الإسلامي إبان العصر السلجوقي، فوجد الأدب مجالاً خصباً لتسجيل الأصول والمبادئ والأفكار التي كانت تدعو لها كل فرقة من ناحية وتصوير الصراع المذهبي بين هذه الفرق من ناحية أخرى^(١). وتعددت اتجاهات المؤلفين في الكتابة وتنوعت مذاهبهم فيها وأصبح كثير من مؤلفاتهم من أقوم ما كتب في الأدب الفارسي التي استوفت حظها من الجمع والاستيعاب والشمول^(٢).

تعد فترة حكم السلاجقة من ألمع الفترات الأدبية من حيث كثرة الشعراء والكتاب، ويلاحظ على أدب هذه الفترة التأثير الواسع للثقافة العربية والأدب العربي على الأدب الفارسي^(٣)، وربما يرجع السبب في هذا إلى أن السلاجقة لم يكونوا فرساً متعصبين للقومية الفارسية التي كانت منتشرة في العصر الساماني، كما كان لاهتمام السلاجقة بالمظاهر الدينية وإنعامهم على الأدباء والعلماء من أصحاب اللسان العربي أثره الواضح في ظهور عدد كبير من الأدباء الذين نظموا ونثروا بالعربية أكثر من غيرها^(٤).

كان لنشوء الأدب الفارسي وازدهاره في حضارة الأدب العربي وسيطرته، أن تبع الأدب الناشئ الأدب القديم في الصياغة الفنية، التي أولع بها بعض شعراء العرب منذ القرن الثالث الهجري. ثم زادت صنوفها وشاعت وعمت حتى حيرت الشعر صناعة لفظية فصيغت المجازات

(١) مجدى عبد المنعم عجمية: الاختلاف حول منزلة السنة وأثره في الشعر الإسلامي عند العرب والفرس، مج ٥، الأعداد من الأول إلى الرابع، رسالة المشرق، ص ٣٨٥.

(٢) مريزن سعيد مريزن عيسى: الحياة العلمية في العراق، ص ٣٧٦.

(٣) Ella Marmura, Arabic Literature, U.S.A, 1976,p62. Morrison, Julian Baldick, History of Literature from the Beginning of the Islamic Period to the Present day.Brill,1981,p6.

(٤) محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى وشعره الجاد، ص ٦٥.

والاستعارات الفارسية على غرار ما ألف في الأدب العربي^(١). وأصبح كتاب الفرس وكأنهم عرب، وباتت عبارتهم صعبة غامضة المعنى لكثرة الألفاظ العربية في الأسلوب الفارسي^(٢). ولاشك أن هذا التطور في النثر الفارسي في الشكل والمضمون قام بهندسته نخبة من رجال الفكر الذين يحسنون اللغتين المنقول عنها والمنقول إليها^(٣).

ويعتبر عصر السلطان ملكشاه وعصر السلطان سنجر من العصور الذهبية للأدب الفارسي عامة والشعر الفارسي خاصة، وإذا كان التأليف بالفارسية راج في هذا العصر فقد حدث الشيء نفسه بالنسبة إلى التأليف بالعربية، فكثرت عدد المؤلفين بالعربية ممن هم من أصل فارسي، ودخلت مؤلفاتهم في عداد آثار الأدب العربي القيمة^(٤).

أ - النثر

مر النثر الفارسي حتى العقد الثاني من القرن السابع الهجري بمرحلتين وشملت كل منهما اتجاهين: الأول التقليد لما كتب في النثر العربي أو لما بقى من الآثار الفارسية القديمة، والثاني الاستقلال والتجديد.

* المرحلة الأولى تبدأ من ظهور الآثار الفارسية الإسلامية المنشورة والتي يعود تاريخها إلى النصف الأول من القرن الرابع الهجري. ومنذ بداية القرن الرابع الهجري بدأ التأليف بالفارسية الإسلامية حين أخذ الأمراء السامانيون في إحياء القومية الإيرانية وأغدقوا العطايا على الشعراء والكتاب وضموهم

(١) أحمد أمين وزكي نجيب محمود: قصة الأدب في العالم في الأدب القديم وأدب العصور

الوسطى، ج١، ط٢، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٤٤١.

(٢) أحمد كمال الدين حلمي: عمر الخيام عصرًا وبيئةً ونتاجًا، ص ٥٦.

(٣) حسين الحاج حسن: أعلام في النثر العباسي، بيروت، ١٩٩٣، ص ٣٧.

(٤) أحمد كمال الدين حلمي: المرجع نفسه، ص ٥٦، ٥٧.

إلى بلاطهم^(١)، وتميز الثر في هذه المرحلة بالسهولة والبساطة والخلو من التكلف والصنعة، يستخدم من الألفاظ ما يعين على بيان المقصود، وكانت الكلمات العربية المستخدمة نادرة لدرجة أنها كانت في الشعر أكثر منها في الثر^(٢).

✽ المرحلة الثانية بدأت منذ أوائل القرن الخامس حتى أواخر النصف الأول من القرن السادس الهجري أو يزيد حتى تصل إلى نهايته، وكتب الكتاب مؤلفاتهم بالعربية والفارسية، وبلغ تعداد ما ألف أضعاف ما كتب في القرن الرابع الهجري، وفيها نرى تطورا في الثر الفارسي نحو النضج والكمال، ونجد كتابا كبارا يثرون الحياة الأدبية بآثار ثرية متنوعة^(٣) ومرد ذلك إلى ظهور الدولة السلجوقية، واتخاذها اللغة الفارسية لغة رسمية للدولة وكتابة وثائقها ومراسلاتها باللغة الفارسية^(٤) وتميز أسلوب الثر في هذه المرحلة باتجاهه إلى التكلف والصنعة واختلط بالثر العربي بل اقتبس منه كثيرا، حيث زين كتاب هذه المرحلة كتاباتهم بكثير من المفردات والمركبات

(١) رضا مصطفوي سبزواري: سهم زبان فارسی زبانان در تمدن جهانی، مجلة اشنا، شماره سیزدهم، سال سوم، ۱۳۷۲، ص ۵۲.

Derek Hill and Oleg Grabar, Islamic Architecture and its Decoration, p33. Frye, The Heritage of Persia , p254. Wickens, Persian Literature, p72.

(٢) ذبیح الله صفا: تاریخ سیاسی واجتماعی وفرهنگی ایران، ص ۱۶۰. السباعی محمد السباعی: الثر الفارسی، ص ۹ - ۱۳.

(٣) السباعی محمد السباعی: المرجع نفسه، ص ۱۶، ۱۵.

(٤) عبد الکریم کلشنی: فرهنگ در قلمرو ترکیان. أشعار ونونیسنده قرن دهم آلبانی، شیراز، ۱۳۵۴، ص ۱۳. ذبیح الله صفا: تطور الشعر الفارسی قبل الإسلام وبعده، الدراسات الأدبية فی الثقافتین العربية والفارسیة وتفاعلهما در فرهنگ ایرانى وعربى وتأثیراتها الجامعة اللبنانية، السنة ۳، العدد ۱، ۱۹۶۱م، ص ۱۰۱.

العربية التي أدخلوها لغتهم، وتحول الإيجاز إلى إطناب وقصر الجمل إلى طول فيها، وكثر الاستشهاد بآيات القرآن الكريم وبالنظم العربي، وشاع ضرب الأمثال وإيراد النوادر العربية بصورة توحى بتقليد نشر العرب الفنى، وراج استعمال الكنايات والاستعارات والتشبيهات والموازنة والسجع والصناعات البديعية بصفة عامة^(١). وبالتالي كان الأدب العربي وبخاصة النثر المعين الذى يصدر عنه فيض ملكات الأدباء الفرس لفترة طويلة من الزمن^(٢).

بقى الأدب العربى أدبا لشعرائها وكتابها وأدبائها واشتهر نظامى عروضى السمرقندى وهو نجم الدين أحمد بن على (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م) من كبار كتاب و شعراء القرن السادس الهجرى، بكتابه جهار مقاله الذى ألفه سنة (٥٥٠هـ / ١١٥٥م)^(٣) وهذا الكتاب مشتمل على أربع مقالات: الأولى فى ماهية الكتابة وصفة الكاتب البليغ الكامل، والثانية فى ماهية الشعر وصلحية الشاعر، والثالثة فى ماهية علم النجوم وتمكن المنجم فى هذا العلم، والرابعة فى ماهية علم الطب وهدى الطبيب وصفته^(٤).

(١) أحمد كمال الدين حلمى: عمر الخيام عصرًا وبيئةً ونتاجًا، ص ٥٦. عبد العزيز مصطفى بقوش: تطور النثر الفارسى فى ايران والهند، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٣. على الشابى: الأدب الفارسى فى العصر الغزنوى، ص ٣٥٩، ٣٦٠.

Julia Rubanovich, Literary Canon and Patterns of Evaluation in Persian Prose on eve the Mongol Invasion, Studia Iranica, tome.32, no. 1, 2003, p50.

(٢) مصطفى الشكعة: الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية كتاب النثر، ط ٣، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٣، ص ٧٠٩. محمد تقى بهار: سبك شناسى يا تطور نثر فارسى، مج ٢، طهران، ص ٦٥.

(٣) الراوندى: راحة الصدور وآية السرور، ص ٢٦٧. كيانوش مايلى: نظرى اجمالى بر تاريخ أدبيات فارسى، تهران، ١٣٧٣، ص ٢٦.

Percy Sykes, A History of Persia, vol.2, c 3, New York, 1963, p66.

(٤) العروضى السمرقندى: جهار مقاله، ص ٢١، ٢٠. حميد نير نورى: سير وتكامل آيين=

يعد هذا الكتاب من أوائل الكتب المصنفة التي ظهرت في النثر الفارسي وبدأت به مرحلة النثر المصنوع ثم شاعت الدعوة إلى هذا الأسلوب، وذكر المؤلف في مقالة الكتابة التي تبين منهاج أدباء الفرس في دروس الأدب. أن الكاتب الذي يريد أن يرقى بأسلوبه و يبلغ درجة عالية لا بد أن يأخذ من كل علم نصيباً، ومن كل أستاذ نكتة، ويسمع من كل حكيم لطيفة، ويقتبس من كل أدب طرفة، وينبغي أن يعتاد قراءة كلام رب العزة، وأخبار المصطفى، وآثار الصحابة، وأمثال العرب، وكلمات العجم، ومطالعة كتب السلف، والنظر في صحف الخلف^(١) ويؤكد المؤلف أن الكاتب العاقل، والأديب الفاضل جمال للملك، وأعظم رفعة للملك^(٢). كما يعتبر كتاب جهار مقاله من أقدم الكتب الفارسية التي عاجلت جوانب من الحياة الأدبية والعلمية في بلاد ما وراء النهر منذ القرن الثالث الهجري حتى منتصف القرن السادس الهجري. ويعد نظامي عروضي سمرقندي واحداً من رواد النثر الفارسي الذين وضعوا القواعد للكتابة في فن الإنشاء، فهو موجز في ألفاظه كبير في معانيه ابتعد عن التصنع في اللفظ وعن التكلف في العبارات كما ابتعد عن الحشو والإطناب الممل مما جعل عباراته لطيفة وموضوعاته جذابة. ومن ثم يمكن أن يعد هذا الكتاب من حيث سلامة الإنشاء وأسلوب العبارة، ونسج الكلام في طليعة الآثار الفارسية المشورة، كما يعد نموذجاً للنثر الفارسي، كما

=کشورداری ایرانیان از کهن ترین زمان تا امروز، سخرانهای دوره جلسات سخرانی وبحث در باره آئین کشور داری ایرانیان، ۱۳۵۳، ص ۲۸۹. ذبیح الله صفا: تاریخ ادبیات در ایران، جلد دوم، ص ۹۶۱. نصرت الله حکیم الهی: تاریخ ایران از تاسیس سلسله طاهریان تا حمله مغول، ص ۱۲۷.

(١) أحمد أمين وزکی نجیب محمود: قصة الأدب في العالم في الأدب القديم وأدب العصور الوسطى، ج ١، ص ٤٤٠. محمد نور الدين عبد المنعم: دراسات في الشعر الفارسي، ص ٢٠.

(٢) العروضي السمرقندي: جهار مقاله، ص ٣٣.

يعتبر لسلاسة أسلوب الكتاب وجمال عباراته نموذجاً يقتدى به الكتاب والأدباء من حيث إنشائه وأسلوبه (١).

بدأ أسلوب النثر الفارسي في الأفرل مرة أخرى منذ أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري، ولكن ذلك لم يدم طويلاً، ولعل هذا الضعف يرجع إلى انهيار الدولة السلجوقية وظهور الدويلات المختلفة التي كان أكبرها الدولة الخوارزمية التي استقلت عن الدولة السلجوقية وأضحت دولة كبرى بعد ذلك (٢).

واستخدم النثر الفارسي منذ ظهوره حتى الآن للتعبير عن الموضوعات المتنوعة والأفكار والمناحي المختلفة كالخطابة، والرسائل الديوانية والقصص، والموضوعات العلمية والتصوف والتاريخ والتراجم والمسائل الدينية (٣).

١ - الخطابة:

كلمة عربية بمعنى الخطاب يجاهر به الخطيب، وهي رسالة نبيلة، ومهمة عظيمة، والخطابة وظيفة القادة ولسان الزعماء. وتشتمل على السجع المنمق والجمل المرصعة والأساليب التي تثير في النفس المهابة والخوف. والخطابة قسمان: خطابة سياسية تصدر من الخليفة أو الأمير أو القائد العام للجيش للحث على الزحف. وخطابة دينية تحث على فضيلة من الفضائل، وتحمل على اكتساب خلق من الأخلاق في أسلوب من الترغيب والترهيب (٤).

(١) العروضي السمرقندي: المصدر نفسه، ص ١. السباعي محمد السباعي: النثر الفارسي،

ص ٣٢١

(٢) السباعي محمد السباعي: المرجع نفسه، ص ٢٠، ٢١.

(٣) حسين الحاج حسن: أعلام في النثر العباسي، ص ٣٨. السباعي محمد السباعي: المرجع

نفسه، ص ٤٦

(٤) إبراهيم على أبو الخشب: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، الهيئة المصرية

العامة للكتاب، الإسكندرية، ص ٣٩١، ٣٩٩.

وكانت الغالبية العظمى منهم من الصوفية^(١) ومن ثم شاع في هذا العصر الوعظ والتذكير بالآخرة. وكان الوعظ يمثل شكلا هاما من أشكال الخطابة في إقليم الصغد في العصر السلجوقي. يقول سبط بن الجوزي: "إن القرنين السادس والسابع الهجريين، كانا عصر الوعظ؛ حيث كان الوعظ يقرأ على الشيوخ كما يقرأ الحديث والفقهاء وأصبحوا فئة كبيرة خلفت فئة القصاص القدامى، بل مزج بعضهم بين القصص والكفدية"^(٢).

ومن أشهر الوعاظ القاضي أحمد بن الحسين بن يوسف الخرقاني السمرقندي يعرف بماه اندرجبه يعنى القمر فى الجبة (ت ٤٩٩هـ / ١١٠٥م) كان من كبار الوعاظ بسمرقند، سمع من السيد أبى الحسن محمد بن محمد بن زيد الحسينى العلوى، روى عنه عمر بن محمد النسفى^(٣). وأبو محمد محمد بن محمد بن أيوب القطوانى السمرقندى (ت ٥٠٦هـ / ١١١٢م) كان يمتلك من روعة البيان وقوة التأثير ما يأسر به القلوب، ويمتلك به زمام جمهور المستمعين، فكان له حظ وقبول من الخاص والعام^(٤) وأبو الليث أحمد بن عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل النسفى السمرقندى (ت ٥٢٢هـ / ١١٢٨م) كان من الوعاظ البارزين فى سمرقند سمع الحديث وتفقه ووعظ، وكان حسن السمات، قدم بغداد فوعظ الناس، ثم عاد إلى سمرقند فقتله قطاع الطريق^(٥).

ومن أشهر الخطباء أبو الحسن على بن إبراهيم بن نصرويه بن سختام بن هرثمة بن إسحاق بن عبد الله بن أسكر بن الخطيب السمرقندى

(١) ابن الجوزي: تليس إبليس، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٣٩٣.

(٢) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٢٩.

(٣) ابن الأثير: اللباب فى تهذيب الأنساب، ج ١، ص ٤٣٤.

(٤) الذهبى: المشتبه فى الرجال، ج ٢، ص ٥٣٢. سبط بن الجوزي: المصدر نفسه، ج ٨، ص ٤٣.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٣٦.

(ت ٤٤٠هـ / ١٠٥٢م) وهو أخو الإمام أبو إسحاق بن إبراهيم الخطيب صهر السيد الإمام أبي شجاع العلوي وأستاذه في الأصول، وكان من مشاهير العلماء رحل إلى خراسان وحدث بها وسمع منه، وروى عنه الإمام أبو المظفر منصور السمعاني والقاضي أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المروزي (١).

ويعد شمس الملك نصر بن إبراهيم بن نصر سلطان بلاد ما وراء النهر (ت ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م) من أفاضل الملوك علما ورأيا وحزما وسياسة، كان مدرسا وخطيبا فصيحاً خطب على منبر سمرقند (٢). وأبو القاسم عبيد الله بن عمر بن محمد بن أحمد الخطيب الكشاني (ت ٥٠٢هـ / ١١٠٨م) كان خطيباً فاضلاً مشهوراً، ثقة عالماً مكثراً من الحديث سمع أبا عبد الله محمد ابن الحسن الباهلي، وسمع منه جماعة من المتقدمين، وروى عنه أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكشاني (٣).

وأحمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن صالح الوذاري (ت ٥٠٣هـ / ١١٠٩م) كان خطيب قرية وذار بسمرقند، صالحاً سديداً، سمع أبا حفص عمر بن منصور بن حبيب الحافظ وغيره وكان من جيران أبي حفص عمر النسفي مواظباً على حضور مجالس إمامته (٤). والشيخ الفقيه الفاضل أبو الحسن ويقال أبو الفضل محمد بن الحسن بن الحسين بن محمد ابن إسحاق بن موهوب بن عبد الملك بن منصور السمرقندي (ت ٥٨٢هـ / ١١٨٦م) الخطيب بسمرقند، قرأ القرآن الكريم على أبي الحسن علي بن

(١) السمعاني: الأنساب، ج ٢، ص ٣٨٥.

(٢) ابن الصلاح الشهرزوري: طبقات الفقهاء الشافعية، ج ٢، ص ٨٩٣.

(٣) السمعاني: الأنساب، ج ٥، ص ٧٤.

(٤) السمعاني: المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥٨٢.

محمد السمرقندى وتفقه على أبى الحسن بن عطاء، سمع من القاضى أبى المحامد محمود بن مسعود السغدى، وحدث ببغداد^(١).

كما كان الشيخ الأجل الفاضل أبو بكر عبد الله بن أبى الحسن على بن أبى بكر بن الخليل الفرغانى الخطيب (ت ٦١٦هـ / ١٢١٩م) من أشهر الخطباء، سمع من أبى عبيد الله محمود ابن على قاضى سمرقند، وأبى محمد بن أحمد بن محمود الصابونى. وخرج لنفسه أربعين حديثا وحدث ببلده، وببغداد وغيرها من البلاد، تولى الخطابة بسمرقند وكان بليغا حسن العبارة، له معرفة جيدة بالأدب، مات شهيدا بيد التتار لما دخلوا سمرقند^(٢).

٢ - الكتابة وديوان الرسائل:

يقصد بها مجموعة الرسائل التى ألقت لبيان طريقة الكتابة وآدابها، ويمكن تقسيم الرسائل إلى قسمين: السلطانيات والإخوانيات، والمقصود بالسلطانيات الرسائل المتبادلة بين السلاطين والأمراء. ويقصد بالإخوانيات الرسائل المتبادلة بين طبقات الشعب المختلفة^(٣) ويرأس هذا الديوان شخص يطلق عليه الرئيس أو صاحب ديوان الرسائل، وهو فى الواقع رئيس ديوان الإنشاء السلطانية. يأتمر بأمره عدد كبير من الموظفين والمحرفين المنشئين الذين كانوا يعملون بثقة الدولة ويحفظون أسرارها^(٤) " فهم بحق نظام الأمور، وكمال الملك، وبهاء السلطان، والألسنة الناطقة عن الملوك، وخزائن أموالهم وأمناؤها على رعيتهم وبلادهم"^(٥).

(١) المنذرى: التكملة لوفيات النقلة، مج ١، ص ٦١.

(٢) المنذرى: المصدر نفسه، مج ٢، ص ٤٨٧، ٤٨٨.

(٣) السباعى محمد السباعى: الثر الفارسى، ص ١٢١. مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمداني، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٦٧، ٦٨.

(٤) أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة فى التاريخ والحضارة، ص ٢١٠. عباس إقبال: الوزارة فى عهد السلاجقة، ترجمة أحمد كمال الدين حلمى، ١٩٨٤، ص ٥٢، ٥٣.

(٥) يحيى الخشاب: التقاء الحضارتين العربية والفارسية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ١٩، ٢٠.

كان ديوان الرسائل والإنشاء يشرف على جميع المكاتبات الرسمية والمراسيم التي تصدر عن السلطان إلى الحكام والولاة وغيرهم، ويعهد إلى صاحبه بتنظيم علاقة الدولة في الداخل والخارج^(١) وعليه أن يحضر المجالس التي كان يعقدها السلطان لسماع المظالم ويقوم بتسجيل أهم الملاحظات^(٢).

كان يشترط في صاحب ديوان الرسائل السرية والكفاءة^(٣)، وأن يكون ملماً باللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والتاريخ، عارفاً بالثقافتين العربية والفارسية^(٤). ومن ثم تميز كتاب الدواوين بسعة الثقافة وعمق الأفكار وترتيب المعاني، ومن قام بالعمل في ديوان الرسائل بهاء الدين محمد بن علي بن محمد بن الحسن الظهيري الكاتب السمرقندي، وهو أحد مشاهير المترسلين والكتاب في عصر السلاجقة، ارتقى في المناصب حتى شغل منصب صاحب ديوان الإنشاء لطمغاج خان، وله كتاب أغراض السياسة في أعراض الرياسة، ويشتمل الكتاب على لطائف كلام الملوك من عهد جمشيد إلى عهد قلع طمغاج خان إبراهيم الذي أهدى إليه الكتاب، والكتاب في جملته مصنوع مزين حافل بالشواهد والأشعار العربية والفارسية^(٥).

وكان سديد الدين أو نور الدين محمد بن محمد بن يحيى بن طاهر بن عثمان العوفي البخاري من كبار علماء بلاد ما وراء النهر في أواخر القرن السادس الهجري ومنتصف القرن السابع الهجري، ولقب بالعوفي لاتصال نسبه بالصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف، نشأ العوفي في أسرة من

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ١٦٤.

(٢) الفلقشندي: صبح الأعشى، ج ١، ص ٤٣، ٤٤. ابن عماتي: قوانين الدواوين، ص ٦٦.

(٣) أحمد كمال الدين حلمي: المرجع نفسه، ص ٢١٠.

(٤) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ١، مكتبة الأسرة، ١٩٩٧م، ص ١٨٧، ١٨٩.

(٥) أحمد كمال الدين حلمي: المرجع نفسه، ص ٢٨٢. أمين عبد المجيد بدوي: القصة في

الأدب الفارسي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٣٢٩.

فضلاء وعلماء بلاد ما وراء النهر، ولد ببخارى وتلقى معارفه الأولى بها ثم ارتحل عنها فى طلب العلم فطوف بأكثر بلاد ما وراء النهر، وسكن سمرقند بعد فراغه من تحصيل علوم عصره سنة (٦٠٠هـ/١٢٠٣م)، وتولى ديوان إنشاء قلع ارسلان خاقان نصره الدين عثمان بن إبراهيم، وظل صاحب الديوان حتى نهاية الدولة الخانية (٦٠٩هـ/١٢١٢م)^(١).

٣ - القصص والحكايات

نعنى بالقصة الفارسية هذا الجانب القصصى من الأدب الفارسى الإسلامى. ولا ريب أننا إذا تحدثنا عن الجانب القصصى من الأدب الفارسى فإنما نتحدث عن أوسع جوانب هذا الأدب وأكثرها إشراقا وأرسخها أركاناً، والقصص الفارسى قديم قدم الأدب الفارسى^(٢). وتتألف القصة عادة من ثلاثة عناصر رئيسية: الموضوع والشخصيات والحوار، وتدور القصة حول سلسلة من الأحداث أو شخصية من الشخصيات أو فكرة من الأفكار تجرى فى بيئة معينة فيكون العنصر السائد فى القصة سلسلة الحوادث أو الشخصية أو الفكرة أو البيئة.

ينقسم القصص الفارسى الإسلامى من حيث الشكل والصورة إلى قسمين رئيسيين: الأول الرواية وتسمى فى الفارسية داستان أو داستان، والثانى الحكاية ويسمىها الفرس حكايت. فالرواية يعنى بها القصة المطولة التى استأثر بها الشعر فيما بعد فتحولت إلى ما يسمى فى عصرنا الحاضر بالملحمة. أما الحكاية فهى القصة الفارسية القصيرة وساهم فيها النثر والشعر على السواء^(٣)، ومن أهم الكتب التى مثلت هذا النوع من الأدب كتاب "سندباد

(١) سعيد نفيسى: تاريخ نظم و نثر در ايران، جلد اول، ص ٩٧.

(٢) أمين عبد المجيد بدوى: الجانب القصصى فى إيران ومصر، ص ٩٥.

(٣) أمين عبد المجيد بدوى: القصة فى الأدب الفارسى، ص ٨٧ - ٩١.

نامه^(١) لبهاء الدين محمد بن علي بن محمد بن الحسن الظهيري الكاتب

(٤) تلخص الحكاية الرئيسية بكتاب سندباد نامه في أنه كان ببلاد الهند ملك اسمه كورديس جمع بين العدل وكريم الخصال ورزقه الله على الكبر غلاما تنبأ له المنجمون بعلو نجمه وتعرضه في مرحلة من عمره لخطر على حياته ينجو منه، فلما شب عهد بتأديبه إلى سبعة من الفلاسفة بذلوا الجهد في تعليمه عشر سنين دون جدوى، فبثسوا منه وكان من بينهم حكيم يدعى سندباد نامه يرجحهم علما وفضلا أخذ على عاتقه وحده المضي في تأديبه، لكنه لم يكن في تأديب الغلام أكثر توفيقا من بقية الحكماء، فلما كلمه الملك في ذلك أجاب بأن الأمور مؤقتة بأوقاتها وقد أدبرت أيام النحس وأقبلت طلائع السعد، ويشره بأنه سيعلمه كل أنواع العلوم والمعارف في ستة أشهر فلما انقضى الأجل، كان الأمير قد ألم بكل أنواع العلوم والمعارف. أزمع السندباد المشول بالغلام بين يدي الملك، ولكنه بعد؛ لأن رصد طالعه تبين له أنه سيقى لسبعة أيام متوالية معرضا لخطر، فنصح الصبي بعدم الكلام طيلة هذه الأيام السبعة مع أي مخلوق وإلا كان في ذلك هلاكه، ثم اختفى ولم يقل الفتى جوابا في حضرة الملك فحملوا ذلك على خجله وأشاروا بإدخاله إلى الحريم عله يأنس بمن فيه فينطلق لسانه، وكان في حريم الملك جارية تعشق الغلام، فلما ظفرت به صرحت له بهواها واستمالها إليه ووعدته بالعمل على توليه الملك بعد الخلاص من أبيه بالسهم فاستنكر ذلك ونهرها، وخافت افتضاح أمرها، فشقت في الحال ثيابها وصاحت مستغيثة وأسرعت فمثلت بين يدي الملك على هذه الصورة وطلبت إليه في ذله أن يتصف لها من الأمير، وانخدع الملك بكلام الجارية وأمر بإخراج الأمير وقتله. وكان للملك سبعة وزراء عرفوا برجاحة العقل وحسن التدبير أجمعوا أمرهم على تخليص الفتى البريء من هذه المكيدة، فكان كل منهم يتقدم إلى الملك في يوم من الأيام يشير عليه بالثريت وعدم العجلة في قتل الأمير خوف الندم، وهكذا حتى تنقضى الأيام السبعة وبنجوا ابن الملك من الخطر الذي تنبأ به المنجمون وينطلق لسانه من عقاله ويقف الملك على عقله وكماله، وينزل بالجارية ما تستحق من العقاب. وفي أثناء ذلك يقص الأمير مجموعة من الحكايات فيشكر الملك السندباد على جهده في حسن تربيته ولده ويتنازل للأمير عن الملك ويعتزل الحياة. الظهيري السمرقندي: سندباد نامه، ترجمة أمين عبد المجيد بدوي، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٧٠، ص ١٨-٢٢. أمين عبد المجيد بدوي: القصة في الأدب الفارسي، ص ٣٣١، ٣٣٢.

السمرقندی (ت ۵۵۶هـ / ۱۱۶۰م)^(۱) وهذا الكتاب فى القصص والحكايات المشتملة على المواعظ والنصائح والحكم والمصالح فى سيرة الملوك مع الرعايا وحسن رعايتهم للرعية. نسب هذا الكتاب إلى الهند والفرس وترجم من الهندية إلى الفهلوية منذ عدة قرون قبل الإسلام وبقيت ترجمته الفهلوية حتى القرن الرابع الهجرى، ومؤلفه فيما يقال حكيم هندى اسمه سندباد نامه كان يعيش فى زمان ملك من ملوك الهند، وذهب محمد بن على الظهيرى السمرقندى إلى أن الأصل الفهلوى لم يكن ترجم حتى عصر الأمير نوح بن نصر السامانى فأمر هذا الأمير أبا الفوارس القناوزى بأن يترجمه إلى الفارسية ويزيل ما تطرق إليه من تفاوت واختلال ويصححه، فنهض بهذه المهمة سنة (۳۳۹هـ / ۹۵۰م).

غير أن عبارة هذه الترجمة على حد قوله "منحطة للغاية وعارية وعاطلة من كل زينة" وفى منتصف القرن السادس الهجرى تناول الازرقى الهروى الشاعر الخراسانى هذه الترجمة فنظمها كلها أو بعضها شعرا وقدمها إلى والى خراسان، ثم جاء بعد ذلك بهاء الدين محمد بن على بن محمد بن الحسن الظهيرى الكاتب السمرقندى، فاخرج ترجمة القناوزى من بداوتها وكسادها وألبسها ثوبا أدبيا جديدا مزينا بالأمثال والأحاديث والآيات والأشعار الفارسية والعربية، وجعله باسم السلطان قلع طمغاج خان بن قراخان برهان مسعود^(۲). ويعد كتاب السندباد قصة لها بداية ونهاية تستوعب بينها حكايات هادفة، يرويهما أشخاصها فى مناسبات ومشاهد مختلفة، ومجموع هذه

(۱) الراوندى: راحة الصدور، ص ۲۹۴. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ۹. ذبيح الله صفا: دور نمایی از فرهنگ ایرانى، ص ۱۲۵.

(۲) الظهيرى السمرقندى: المصدر نفسه، ص ۵، ۷. أمين عبد المجيد بدوى: المرجع نفسه، ص ۳۲۸، ۳۲۹.

الحكايات هو مادة القصة وقوامها، فهي أشبه بنظام عقد ينتظم حباته، فإذا انفرطت وتبددت هذه الحبات لا يكون غير خيط زهيد^(١).

وكان سديد الدين أو نور الدين محمد بن محمد بن يحيى بن طاهر بن عثمان العوفى البخارى، قد سكن سمرقند سنة (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) وعند حملة المغول فر إلى السند، وألف كتاب جوامع الحكايات ولوامع الروايات الذى يعتبر من أهم مؤلفاته؛ لما تضمنه من فوائد تاريخية وأدبية لا توجد فى غيره^(٢).

يحتوى هذا الكتاب على أربعة أقسام، كل قسم منها به خمسة وعشرون بابا كتبه العوفى بأسلوب جيد وعبارة واضحة. القسم الأول حكايات عن أشخاص أسطوريين وتاريخيين وطبقات متفرقة من رجال الحكم والعلماء والشعراء. القسم الثانى حكايات قصيرة فى بيان الفضائل الإنسانية. القسم الثالث حكايات تمثل الرذائل الآدمية. القسم الرابع موضوعات متفرقة من قبيل الأدعية التى يدعوها الغريب لتصونه وتنجيه من المخاطر وحكايات من عجائب الخليقة^(٣). ويتمى كتاب جوامع الحكايات إلى ذلك الطراز من المجموعات الأدبية الذى انتشر بشكل خاص فى الأدب العربى وبالأخص مجموعة القصص التاريخية واليومية التى يقصد بها النصيحة والموعظة الحسنة وأحيانا الإمتاع^(٤).

أما الحكاية التمثيلية فيراد بها تلك الحكايات التى تقوم مقام الشاهد

(١) الظهيرى السمرقندى: سندباد نامه، ص ١٧.

(٢) أمين عبد المجيد بدوى: القصة فى الأدب الفارسى، ص ٣٦٠، ٣٦١. كراتشكوفسكى:

تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ط ٢، دار الغرب

الإسلامى، بيروت، ١٩٨٧، ص ٣٥٤، ٣٥٥.

(٣) أمين عبد المجيد بدوى: المرجع نفسه، ص ٣٦٢.

(٤) كراتشكوفسكى: المرجع نفسه، ص ٣٥٥.

والمثل، فالكاتب أو الشاعر يسوق قضية فيعززها أو يأتي برأى فيدلل على صحته بحكاية من هذه الحكايات كما نستشهد نحن بحكمة أو كلمة مأثورة. فيتحدث النظامى العروضى السمرقندى فى مقالاته الأربع عن شرائط الكتابة والكتاب والشعر والشعراء والنجوم والمنجمين والطب والأطباء، ويرد فى كل مقالة بعشر حكايات طريفة مما اتفق وقوعه لمشاهير هؤلاء تصديقا لما ذهب إليه فى هذه المقالات^(١). ومن ثم نمت الكتابة المنهجية التأليفية فى هذا العصر، واكتملت أسباب نضجها، وتميز الكثير من الكتب بأسلوب العصر الذى لا يخلو من موجة التصنع والسجع والبديع بأنواعه المختلفة وكثر المؤلفون من لغويين ومؤرخين ورحالة وغيرهم وخضعت مؤلفاتهم لأسلوب العصر^(٢).

ومن الأدباء البارزين أبو حفص عمر بن أحمد بن محمد بن الحسن الكشانى الأديب (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) مشهور بالتأديب^(٣)، وأبو سعد بن أبى اليمن السمرقندى (ت ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م) كان يتولى بغداد وعزل عنها وله نوادر^(٤) وأبو محمد عبد الجليل بن محمد بن عبد الموجود بن نصر الضحاك (ت ٤٩٨هـ / ١١٠٤م) كان من خلفاء الدار الجوزجانية بسمرقند، روى عن أبى حفص عمر بن منصور بن خنب البزاز الحافظ، روى عنه أبو حفص عمر النسفى^(٥). وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن عمر بن الأشعث السمرقندى (ت ٥١٦هـ / ١١٢٢م) كان من كبار حفاظ الحديث ورزق حظا من الأدب إذا قرأ أعرب وأعرب^(٦).

(١) أمين عبد المجيد بدوى: المرجع نفسه، ص ٢٩٦.

(٢) مريزن سعيد مريزن عسىرى: الحياة العلمية فى العراق، ص ٤٠٠.

(٣) الصيرفىنى: المنتخب من السياق، ص ٥٥٧.

(٤) ابن الفوطى: تلخيص مجمع الآداب فى معجم الألقاب، ج ٤، ص ٩١٦.

(٥) السمعانى: الأنساب، ج ٥، ص ٦٨٥.

(٦) ابن الجوزى: المنتظم، ج ٩، ص ٢٣٨. الذهبى: تذكرة الحفاظ، ج ٤، ص ٤٢٦٣.

١٢٦٤. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٩١.

كما كان أبو الفضل محمد بن عمر بن محمد الأشتيخني السغدّي (ت ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م) من أشهر أدباء العصر أدبيا فقيها بارعا صالحا، كتب بنفسه أمالي أئمة سمرقند، تفقه على الإمام مسعود بن الحسين الكشاني، سمع منه أبو المظفر السمعاني^(١). والشيخ الأديب أبو محمد عبد الرحيم بن علي بن نيازى بن علي بن النعمان النسفى (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) سكن سمرقند وكان أدبيا سديدا، سمع أبا الحسن محمد بن محمد بن زيد الحسنى العلوى، روى عنه الإمام أبو شجاع بن محمد بن عبد الله البسطامى^(٢).

هكذا بلغ النثر قمة تطوره فى مدن إقليم الصغد خلال العصر السلجوقى لاتخاذة أسلوبا جديدا هو أسلوب النثر الفنى المتكلف^(٣) حيث صب الكتاب أفكارهم فى قوالب جميلة من الألفاظ المزخرفة والمحسنات والاستعارات وما شابهها، كما كثرت الاستشهادات المأخوذة عن النظم العربى، وبلغ اعتقاد الكتاب خلال هذا العصر أن النثر البسيط البعيد عن التكلف نثر ركيك لا جدوى منه^(٤).

ب - الشعر

هو الكلام الموزون^(٥) ويعرفه نظامى عروضى السمرقندى فيقول: "الشعر صناعة، بها الشاعر يؤلف المقدمات الموهمة، والقياسات المنتجة على وجه يجعل المعنى الصغير كبيرا والكبير صغيرا، ويرد الحسن فى زى القبيح،

(١) السمعاني: المصدر نفسه، ج٢، ص ٩١. القرشى: الجواهر المضية، ج٣، ص ٢٩١. ابن نقطة: تكملة الإكمال، ج٢، ص ١٧٠.

(٢) السمعاني: المصدر نفسه، ج٥، ص ٧٠١.

(٣) على الشابى: الأدب الفارسى فى العصر الغزنوى، ص ٣٥٩.

(٤) عبد العزيز مصطفى بقوش: تطور النثر الفارسى فى إيران والهند، ص ١٨.

(٥) خانلرى: أوزان الشعر الفارسى، ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم، القاهرة، ١٩٧٨، ص ١١. عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٩١.

ويجلو القبيح فى صورة الحسن، ويشير بالإيهام القوى الغضبية والشهوانية فيحدث بهذا الإيهام للطباع انقباضا وانبساطا، وتنشأ فى العالم الأمور العظام^(١) فالشعر هو لسان الأمة المعبر عن أمالها وآلامها، فهو كالكائن الحى ينمو فى وجدان الشعب، ومع نمو فكر الأمة فلا يمكن فصله عن روح الشعب وطبيعته^(٢). فكان الشعر انعكاسا للأحوال والأوضاع السياسية والاجتماعية فى إقليم الصغد وذلك لمعرفة الشاعر بما يحيط به وتأثره بما حوله واهتمامه بالمحيط المادى إلى جانب اهتمامه بالخيال^(٣).

ازدهر الشعر فى مدن إقليم الصغد فى العصر السلجوقى ووصل إلى قمة تطوره وحظى الشعراء باهتمام كبير من قبل سلاطين السلاجقة والحكام القراخانيين، حتى أصبحت مدن الإقليم مراكز أدبية عظيمة الشأن آنذاك. وكان الشعر فى بداية العصر السلجوقى يتميز بمحاكاة الشعر الغزنوى، ثم نجح شعراء إقليم الصغد خلال العصر السلجوقى فى ابتكار أساليب شعرية جديدة تعد سمة بارزة لهؤلاء الشعراء^(٤)، وكانت هذه الأساليب انعكاس مضمانيين الشعر العربى وأفكاره وأسلوبه^(٥). كذلك اتسعت موضوعات الشعر الفارسى واتجهت إلى أبسط الأساليب وأقربها إلى الطبيعية، وأبدع الشعراء فى وصف المناظر الطبيعية وتحولت بعض أشعارهم فيها إلى لوحات فنية بارعة^(٦). فمثلا

(١) نظام العروضى السمرقندى: جهار مقاله، ص ٣٤.

(٢) محمد السعيد عبد المؤمن: الرؤية والنسيج فى الشعر الإيرانى المعاصر، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٨٩.

(٣) محمد نور الدين عبد المنعم: دراسات فى الشعر الفارسى حتى القرن الخامس الهجرى، ص ٣٦.

(٤) ذبيح الله: تاريخ أدبيات در إيران، مج ٢، ص ٢٩٠، ٢٩١.

(٥) مصطفى الشكعة: الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية، ص ١٥٩، ١٦٠.

Omar Pound, Arabic and Persian Poems in English, 1970, p24

(٦) محمد نور الدين عبد المنعم: المرجع نفسه، ص ٣٦.

كان اتجاه الشاعر السوزنى الأدبى صوب الغزل والمديح والوصف، وكان للبيئة الجغرافية تأثير كبير على صورته الشعرية التى يغلب عليها الوصف الخارجى والتلون بجمال البيئة والتأثير بمفاتيح الطبيعة؛ فكثيرا ما يبدأ مقدمات قصائده المدحية بوصف هذه الطبيعة الخلابة، وكثيرا ما يذكر أسماء الطيور والحيوانات ويمزج بينها وبين ممدوحيه فيقول:

من خوفه يأخذ من التذر وحقه من الصقر
والشاه من الذئب والحمار الوحشى من سطوة الأسد
ويقول أيضا على النمط السابق:

فى حمى البطل يخرج الكبك والتذر والكتكوت
ملتقط الحب بين جمال الطبيعة التى يحيهاها
وجمال الحبيب أو المعشوق الذى يهواه

وربما كانت الطبيعة وجمالها من العوامل التى دفعت الشاعر إلى الاتجاه الحسى المادى فى غزلياته فى عصر مال الغزل إلى الناحية الصوفية البحتة. ويقول السوزنى:

كلما أمعنت فى السرو والقمر ذات ليلة أو نهار
طاف أمام عيني طائف من قده وخده.
فقلت للقمر: يا من تكون نظيرا لخد معشوق
وللسرو: أيها الشبيه بقدر محبوبى.
فيشتعل القمر فى سمائه والسرو فى رياضة
من هذا القول ويطول عنقه فخرا
وإذا ما كان لقامة محبوبى صفته السرو

وكان لعارض محبوبى شبه القمر^(١).

تعددت موضوعات الشعر فى مدن إقليم الصغد فى ذلك العصر، فطرق الشعراء أبواب المدح والهجاء والوعظ والحكمة والمسائل العرفانية والغزل^(٢)، بعد أن تزودوا بالثقافات العلمية واطلعوا على ما فيها من دقائق المسائل^(٣) وكان المديح أهم هذه الموضوعات الشعرية التى راجت فى الصغد، حيث أقبل الشعراء عليه لينالوا العطاء من قبل السلاجقة والحكام^(٤) وكان المدح يخرج دون عاطفة صادقة معتمدا على الأسلوب والمبالغة.

أما الهجاء فكان يعبر عنه بصدق عن نفسية ناظمة مع ميل إلى المبالغة والسخرية أو التجريح والفحش^(٥)، وحظيت بلاد ما وراء النهر بعدد وافر من الشعراء المادحين، وكان جزء 'كبير' من قصائدهم مرتبطاً بخاقانات بلاد ما وراء النهر وخصوصاً الخاقان العظيم خضر ابن إبراهيم، ويعد الشاعر شهاب الدين عمق البخارى ملك شعراء هذا الأمير.

(١) محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى، ص ٨٤، ٨٥.

(٢) الأبشيهى: المستطرف فى كل فن مستظرف، ص ٦٤٥. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، ص ٢٤١. شوقى ضيف: عصر الدول والإمارات، ص ٥٦٥. محمد جعفر محجوب: سبك خراسانى در شعر فارسى، جابخانه دييا، انتشارات فردوسى وجامى، ص ٦٣٧. محمد محمدى: الأدب الفارسى، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٧٨، ٢٠٤. محمد نور الدين عبد المتعم: دراسات فى الشعر الفارسى حتى القرن الخامس الهجرى، ص ٤٣، ٤٩، ٥٠.

(٣) ذبيح الله صفا: تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران، ص ١٥٧. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، ص ٢٤١.

(٤) ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، مج ٢، ص ٦٩٧.

Julie Scott, Medieval Persian Court Poetry, New York , 1987,p40.

(٥) أحمد كمال الدين حلمى: عمر الخيام، ص ٩٧، ٩٩.

و غرض الهجاء والهزل يعد من الأغراض الشعرية التي ارتفع شأنها في هذا العصر حتى بلغ أقصى درجات رقيه بحيث لم يكن له مثل سابق عليه أو لاحق له^(١)، وتعددت الآراء في أسباب رواج هذا الفن الذي ارتبط بهذا العصر، ومنها:

١ - تشجيع السلاطين والأمراء للشعراء على تبادل الهجاء من أجل الترويح عن أنفسهم وخواطريهم.

٢ - الأوضاع الاجتماعية لهذا العصر كان لها تأثيرها على رواجه.

٣ - ويرجعه البعض بسبب التعصب الديني، وشيوع الفساد الأخلاقي^(٢).

على كل حال وصل الهجاء في هذا العصر إلى الحد الذي كان التلاميذ فيه والأساتذة يتبادلون الهجاء، وكانت بلاد ما وراء النهر أكثر المناطق التي انشأ فيها غرض الهجاء والهزل، ويعد السوزني في الواقع زعيم هؤلاء الشعراء في هذا العصر، وكان شعراء عصره الجادون يتعرضون لسخرياته، وكان يرميهم بسهام أشعاره^(٣).

ومن كبار الشعراء عمق وهو أبو النجيب شهاب الدين عمق البخاري (ت ٥٤٣هـ / ١١٢٩م) أحد أساتذة بلاد ما وراء النهر الذين ذاعت شهرتهم، مدح السلطان سنجر ونال عطاءه. وارتبط بالسلطان خضر خان - من حكام أفراسياب - في بلاد ما وراء النهر، وأصبح أبرز شعراء الدولة وامتلك الغلمان والجواري والجياد والأموال^(٤). وكان عمق يمدح الشاعر رشيدى

(١) ذبيح الله صفا: تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران، ص ١٥٩.

(٢) محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى، ص ٦٩، ٦٨.

(٣) محمد محبوب: سبك خراسانى در شعر فارسى، ص ٦٣٦، ٦٣٥.

(٤) دولتشاه: تذكرة الشعراء، تصحيح وتمهيد محمد اقبال، ١٩٣٩، ص ٣٧. سعيد=

ويقر بفضلله حتى ارتفع شأن رشيدى لدى السلطان خضر فدبت بينه وبين عمق الوحشة^(١) لدرجة أن عمق وصف أشعاره فى السلطان خضر بعدم الملاحه فرد عليه رشيدى:

لقد ذممت أشعارى ووصفتها بعدم الملاحه وهذا جائز ولكن شعرى مثل الشهد والسكر ولا يكون الملح له موضع بين هذين أما أشعارك فهى لفت وياقلاء والملح لازم لك فيهما^(٢). هذا ولعمق دور لا ينكر على المرثية وطريقة نظمها، وهو الذى رثى أخت السلطان سنجر عندما استدعاه لذلك الغرض، غير أنه اعتذر عن عدم حضوره لأنه بلغ من الضعف مبلغا لم يمكنه من تلبية هذه الدعوة، وأرسل المرثية.. منها هذان البيتان:

فى حين ينبت الورد فى أرض البستان
ذهبت تلك الوردة المتفتحة، واختفت فى التراب
وفى حين يأخذ الغصن من السحاب قطر الماء

=نفسى: تاريخ نظم ونثر در إيران، جلد أول، ص ٩٦. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٥٣٧. عبد العظيم رضائى: تاريخ ده هزار ساله ايران جلد سوم، جاب بنجم، ص ١٤٢.

(١) عبد الحسين زرين كوب: سيرى در شعر فارسى، جاب سوم، طهران، ١٣٦٢، ص ٤٦.

(٣) شعرهاى مرايه بى نمكى عيب كردى روا بود شايد
شعر من همجو شكر وشهدست وندين دونمك نكونايد
شلغم وياقليست كفته تو نمك أى قلتبان ترا بايد

هدايت: مجمع الفصحاء، ج١، الهند، ١٢٧١، ص ٣٤٥. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، جلد دوم، ص ٥٤٧.

أصبح نرجس هذا البستان الجميل بلا ماء^(١).

نال عمعق لقب أمير الشعراء^(٢) كما لقب بسلطان العلماء، وأقر له الأنورى بالأستاذية وسماه أستاذ الكلام^(٣)، وكان شعره غاية فى العذوبة والسلاسة، رقيق فى ألفاظه حيث كان يختار أخف الأوزان^(٤). كما كان خصب الخيال على نحو يجعل شعره ينبض بالحركة والحياة^(٥)، وما كان منه مصنوعا قد أوقع الأساتذة فى حيرة. وتشهد قصائده المشحونة بألوان الصناعات والنظرات الفلسفية العلمية بأنه كان خبيراً بالعلوم المتداولة فى عصره. وكان دقيقاً فى تشبيهاته، سليم الذوق جزل اللفظ واضح الفكرة، يخلو كلامه من الإبهام ويفيض رقة وإحساساً^(٦). وخلف من بعده ديوانا زاخراً بالقصائد والرباعيات والقطع، كان يحتوى على سبعة آلاف بيت لم يبق منها سوى ٦١٤ بيتاً. ويقال إنه انزوى فى أواخر أيامه وكان يرسل ابنه حميدى إلى مجالس السلاطين بدلا منه^(٧).

(١) دولتشاه: المصدر نفسه، ص ٣٧. سعيد نفيسى: المصدر نفسه، جلد أول، ص ٩٦. هدايت: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٤٥. فخرى هروى: تذكرة روضة السلاطين، تبريز، ١٣٤٥، ص ١٤.

(٢) عبد الحسين زرین كوب: المرجع نفسه، ص ٤٦.

(٣) ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، جلد دوم، ص ٥٣٧. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، ص ١١٧.

(٤) رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، ص ١١٨. ذبيح الله صفا: عمعق بخارائى، مجلة مهر، شماره ٤، سال سوم، ١٣١٤، ص ٤٠٨.

(٥) أحمد كمال الدين حلمى: عمر الخيام، ص ٣٢٥. ذبيح الله صفا: تاريخ أديبات در ایران، جلد دوم، ص ٥٣٩. عبد الحسين زرین كوب: سيرى در شعر فارسى، ص ٤٦. محمد محمود إدريس: السلطان سنجر السلجوقى، ص ١٣٤.

(٦) أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة فى التاريخ والحضارة، ص ٣٢٥. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، جلد دوم، ص ٥٣٩، ٥٤٠. ذبيح الله صفا: المقال نفسه، ص ٧-٤.

(٧) سعيد نفيسى: تاريخ نظم ونثر در ایران، جلد أول، ص ٩٧. آقا بزرك: الذريعة، =

ويعد السوزنى السمرقندى من أشهر الشعراء وهو شمس الدين محمد ابن على السوزنى الملقب بتاج الشعراء (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣م) نشأ السوزنى فى بيئة انتشر فيها الهجاء بصورة منفرة بحيث يعد من خصائص هذا القرن. واشتهرت هجائيات السوزنى قدوة الجميع الذى ليس له نظير، وانتشر الهجاء بين الشعراء إلى الحد الذى كان التلميذ فيه لا يتورع من هجاء أستاذه. وعرف هذا العصر بعصر الهجاء، وبرز فيه شعراء كبار، وفاقت شهرة السوزنى أقرانه حتى قيل بأنه لم يسلم شاعر معاصر له من سيف هجائه، وبرع السوزنى فيه إلى الحد الذى نفر منه الجميع^(١). ومن الشعراء الذين عاصروه وتبادل معهم الهجاء عمق البخارى (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م) والانورى (ت ٥٨٠هـ / ١١٨٤م) ورشيد الدين الوطواط (ت ٥٥٦هـ / ١١٦٠م) ومعزى (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م) وأديب صابر (ت ٥٣٨هـ / ١١٤٣م) وعلى شطرنجى ونظامى عروضى سمرقندى، وقد سبب الأذى لهم جميعا بلسانه الخاد^(٢).

كان من أهم الظواهر الاجتماعية التى سادت عصر هذا الشاعر ظاهرة الاهتمام بالغللمان وخاصة الغلمان الأتراك، وكان هؤلاء الغلمان على درجة كبيرة من الحسن والجمال، فانتشر بين الحكام حبهم لهؤلاء الغلمان، وشاع

=ج٩، ص ٧٧٠. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، جلد دوم، ص ٥٤١. ذبيح الله صفا: المقال نفسه، ص ٤١١.

(١) ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، جلد دوم، ص ٦٢٢. ذبيح الله صفا: تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنگى إيران، ص ١٥٩. عبد الحسين زرین كوب: المرجع نفسه، ص ٤٧، ٤٨. محمد كامكار بارسى: رباعى ورباعى سرابان از اغاز تا قرن هشتم هجرى، تهران، ١٣٧٢، ص ١١٧، ١١٨. محمد محجوب: سبك خراسانى در شعر فارسى، ص ٦٣٦، ٦٣٥. محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى، ص ٥١.

(٢) هدايت: مجمع الفصحاء، ج١، ص ٢٤٩. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٦٢٢.

بين الشعراء فى شعرهم ظاهرة الغزل بالمذكر، ويقال إن السوزنى سُمى بذلك لعشقه غلاما تركيا كان يعمل بمهنة الخياطة يدعى كلاهدرو، ويقول له السوزنى متغزلا:

الاسم نجم والعرض قمر والشعر طيب الرائحة
واكتسب القمر والنجم منك النور وطيب الرائحة^(١).

ومدائح السوزنى تشير إلى تقدير ممدوحيه له وعطاياهم فيقول فى ذلك:

أنا العبد الغريق فى بحر بره وإحسانه وأسبح فيه بيد وقدمى بالشكر والثناء^(٢)
كثّر عدد ممدوحيه الذين كان معاصرا لهم ومن أشهرهم شمس الملك
على بن حسين، وعلاء الدين محمد خان بن سليمان، وجلال الدين قدر
طمغاج خان، وارسلان خان بن محمد ابن سليمان، وركن الدين مسعود بن
حسن قليج طمغاج خان، كما مدح أسرة آ، مازه وآل برهان رؤساء الخنفية
ببلاد ما وراء النهر، ومدح أيضا اتسز خوارزمشاه والسلطان سنجر^(٣).

لما كان السوزنى متأثرا بالبيئة إلى أقصى مداها؛ نظم قصيدة كاملة تصل
إلى ثمانية عشر بيتا فى مدح ممدوحيه، مزج فيها بين مدح ممدوحه ومدينة
سمرقند:

أيها السيد وراس مال كرام سمرقند اسمك أكثر شهرة من اسم سمرقند.
ثقة الدين شمس الأمناء والحكماء معتمد الملك وخاصة وعامة سمرقند.

(١) محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى، ص ٥٥.

(٢) محمد محمد يونس: المرجع نفسه، ص ١١٣، ١١٤.

(٣) سعيد نفيسى: تاريخ نظم ونثر در إيران، جلد أول، ص ٩٨. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، ص ٦٢٢.

فمنك الابن والأمين لسمرقند فالابن مفتى والأب إمام سمرقند.
 إن لم يكن في سمرقند من نعمة فكفى بحدك نعمة سابغة لسمرقند.
 صارت سمرقند مثل دار السلام طيبا وسعادة في كل مقام بما لك من عظمة وبهاء^(١)
 ظل السوزنى طوال حياته وحتى مشارف شيخوخته منخرطا في غيه
 وفساده، منطلقا في هزلياته وهجائياته وإن حافظ في الوقت نفسه على ما
 ينشده من أشعار جادة لا تخرج في موضوعها عن المدح والغزل، ثم صارت
 في شيخوخته توبة واستغفارا، ورغم شهرة السوزنى بالهجاء فإن ما أنشده في
 هذا الغرض لا يتجاوز ثلث مجموع أشعاره في هذا المجال وفاق أترابه^(٢).
 وهذا واضح من قوله لممدوحه تاج الدين:

هناك شعراء قليلو القدر والقيمة من حدود مصر حتى أرض طمغاج.
 أنا الأفصح بين كل الشعراء وأنا التاج على رأسهم جميعا.
 ليس ثمة شاعر مثلى في الجدل والهزل سواء في الروم أو خلع أو قيجاج^(٣).
 كان من الطبيعي أن يحس السوزنى في شيخوخته بما فعله في فترة
 الشباب، وأن ما تبقى من العمر لا يستحق التماذى في الغى والفساد، فكف
 عن الهزل والهجاء، واتجه إلى إنشاد الأشعار الرائعة في التوبة والاستغفار

(١) أى سرو سرمايه كرام سمرقند	نام تو مشهور ترز نام سمرقند
شمس اميتان وصائبان ثقة الدين	معتد شاه وخاص وعام سمرقند
از تو بسر صاين وامين سمرقند	بور ويدر مفتى وإمام سمرقند
كر بسمرقند هيچ نعمت نبود	فر توبس نعمت تمام سمرقند
از خوشى جو دار السلام است	باقروزيب توهر مقام سمرقند

محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى، ٨٦، ٨٧.

(٢) محمد محمد يونس: المرجع نفسه، ص ١١٧، ١١٨.

(٣) محمد محمد يونس: المرجع نفسه، ص ١١٨، ١١٩.

وطلب الرحمة من الله عز وجل، وكان ذلك عندما وصل سن الستين^(١)،
ومن أجمل ما قاله السوزنى فى توبته قصيدة يعرض من خلالها ما كان فى
حياته من سوء وفحش، وعنوان القصيدة هو: " توبة از كناهان " أى توبة عن
الذنوب، وأولها:

حينما صار جسدى أميرا على أهواء قلبى
أقبل جيش من السفاهة نحو صدرى^(٢).

ومن روائعه فى الزهد والتوبة والاستغفار قوله:

باعتباك أيها الإله الذى التجأت إليك من لطفك
ولقد دعوت بأعتابك مما اقترفتته.
إلى أن يقول:

أنت تعلم ولا يخفى على الخلائق جمعاء
أننى أحضرت معى زاد التوحيد من أجل العز والجاه.
أنى جالب لك يا ربى أربعة أشياء لا توجد فى كنوزك العامرة
وهى الحاجة، والعدم، والذنوب، والجرائم الجائرة^(٣).

ويقرر السوزنى نفسه أن حياته لم تخل من النقد والتجريح، فيقول:

(١) ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٦٢٣. محمد محمد يونس:
المرجع نفسه، ص ١١٩.

(٢) محمد محمد يونس: المرجع نفسه، ص ١٢١، ١٢٠.

(٣) جار جيز آورده ام يا رب كه در كنج تونست
نيستى وحاحت وجرم وكناه آورده ام .

براون: تاريخ الأدب فى إيران، ص ٤٣٤، ٤٣٣. محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى،
ص ٥٣، ٥٤.

لقد سرت في طريق الشيطان ووقعت في حباله الشائكة
 بحيث تشيطنت أكثر من الشيطان، وفقته في سيرته الخاطئة
 ولم أكن في يوم من أيام حياتي مبرءاً من الآثام
 حتى لقد خيل لي أن البراءة منها واحدة من الجرائم العظام
 كما تنمو الأعشاب في الأرض الخصبة المنداة بالماء
 واليوم إذا أنكر المنكرون ذنوبهم ففي يوم الحشر في الغداة
 ستكون أعضاء بدني شاهدة على أعمالى في غير مداراة^(١)
 وبعد توبته سافر إلى الكعبة وأدى فريضة الحج، وكان قد طلب من
 ممدوحه عونه في ذلك:

سأدعو له في مزار يشرب ببركة العمر
 فليس في الدنيا بأسرها مزار أكثر بركة منها^(٢).

كانت الظروف جميعاً تساعد على رواج التصوف، فأصبحت الصوفية
 موضع احترام الناس والأمراء والسلاطين لبعدهم عن المجادلات المذهبية، مما
 أدى إلى انتشار التصوف وبروز طبقة المتصوفة^(٣)، والسوزنى إن لم يكن
 متصوفاً ولم ينشد أشعاراً في التصوف فإن أشعاره في الزهد التى أنشدها

وز ديو ديو تر شدم از سيرت تياه	(١) رقتم براه ديو وقتادم بدام أو
كويآ كه بود بيكنهى نزد من كناه	يك روز بيكناه نبودم بعمر خویش
جون از زمين نم زده هر كونه كياه	هر كونه كناه زاعضای من برست
اعضای من بود بر اعمال من كواء	فردا بروز حشر كه امروز منكرند

براون: المرجع نفسه، ص ٤٣٤.

(٢) محمد محمد يونس: المرجع نفسه، ص ١٢٠، ١٢١.

(٣) أحمد كمال الدين حلمى: عمر الخيام، ص ٤٢، ٤٣. قاسم غنى: تاريخ التصوف فى

الإسلام، ص ٦٨٨

بدافع التوبة عن هزلياته، قد تأثرت بروح العصر وما سادته من ظروف وملابسات. وربما كانت الظروف القاسية التي ألمت بهذا العصر ودفعت الناس إلى اليأس والتشاؤم وعدم الإحساس بالأمان هي نفسها أحد العوامل التي دفعت السوزنى إلى الاتجاه صوب المدح^(١).

كان السوزنى مضرباً عن الزواج متمتعاً بعدوبته إلا أن هذا لم يطل؛ إذ سرعان ما اتخذ لنفسه زوجة وأنجب منها عدة أبناء، تركزت الأضواء على ولد منهم يدعى ضياء الدين، هو الذى جمع أشعار أبيه ودونها بناء على قول السوزنى نفسه فى قصيدة يمدح فيها أحد ممدوحيه:

حتى تفضل ضياء الدين بعد تشجيعك لشعرى بجمع هذا الكلام الغث من الشعر.

وهذا الجمع تم ودون فى حياة السوزنى، وكان ضياء الدين هذا شاعراً أيضاً وربما سار على درب أبيه مما سبب للأب آلاماً من هذا السلوك، وكان للسوزنى ولد^(٢) آخر يدعى محموداً ويقول عنه مخاطباً أحد ممدوحيه:

عندى ابن سمي لأبيك، يا من خصالك محمودة مثل اسم أبيك^(٣)
تميز السوزنى بسهولة البيان، وأسلوب بسيط عذب بحيث لا يوجد فى كل ديوانه بيت واحد فيه تعقيد، وتتجلى فى غالب شعره روح الدين بوضوح وكذلك يعتمد على الاقتباس من الحديث و التفسير، وبلغ منتهى قدرته فى الهجاء والهزل، ولكنه كان مقتدراً أيضاً فى المديح والغزليات فصيحاً وبسيطاً، ويعد أول شاعر استعمل ألفاظاً تركية فى الشعر الفارسى ويرد فى شعره كلمات كثيرة من لهجة بلاد ما وراء النهر^(٣)، وخلف من بعده ديواناً زاخراً

(١) محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى، ص ٥٤، ٥٥.

(٢) محمد محمد يونس: المرجع نفسه، ص ١٢٤.

(٣) سعيد نفيسى: تاريخ نظم ونثر در إيران، جلد أول، ص ٩٨.

بالقصائد كان يحتوى على اثني عشر ألف بيت وقيل أربعة عشر ألفاً^(١) وصار أسلوب السوزنى قدوة فى بلاد ما وراء النهر ووجد له مقلدون وتلاميذ من بينهم على الشطرنجى^(٢)

ومن كبار الشعراء فى مدن الصغد سيد الشعراء الأستاذ أبو محمد بن محمد الرشيدى كان من أشهر شعراء القرن السادس الهجرى، لم يسبقه أحد فى صناعة الشعر، وهو من أهل سمرقند. وكانت هناك صلوات بين الرشيدى والأمير عمق البخارى فى عهد السلطان خضر ابن إبراهيم، وكان مادحا له ولزوجته^(٣) وكان عمق يمتدحه ويقر بفضلته حتى ارتفع أمره وأصبح سيدا للشعراء، وأصبح مقربا للسلطان وحصل منه على صلوات كثيرة وعطايا وهبات، فدبت بينه وبين عمق جفوة لدرجة أن كلا منهما هجا الآخر^(٤). تميزت قصائده بالسلاسة وعذوبة الألفاظ والبعد عن التعقيد رغم استخدامه الكثير من التكلف والصنعة الشعرية^(٥).

كما يعد أبو بكر محمد بن على روحانى السمرقندى من أشهر شعراء القرن السادس الهجرى، كان من تلاميذ رشيدى السمرقندى، وعمن سار على طريقته، وقيل عنه "إن روح كلامه روح للجسد" واشتهر بمدح الملوك وأهمهم بهرام شاه ومحمد خوارزمشاه، ويذكر ذبيح الله صفا: أنه مدح غيره من ملوك الخوارزمية. وبقي شعر روحانى دليلا قاطعا على مهارته فى الشعر

(١) آقا بزرك: الذريعة، ج٩، ص٤٧٦.

(٢) براون: تاريخ الأدب فى إيران، ص٤٣٤.

(٣) سعید نفیسی: المصدر نفسه، جلد أول، ص٩٧. محمد عوفى: لباب الألباب، ص٣٧٥. محمد كامكار بارسى: رباعى ورباعى سرايان از اغاز تا قرن هشتم هجرى، تهران، ١٣٧٢، ص١١٥. ذبيح الله صفا: عمق بخارائى، ص٤٠٥، ٤٠٦.

(٤) هدايت: مجمع الفصحاء، ج١، ص٥٢٤. ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در إيران، جلد دوم، ص٥٤٧.

(٥) محمد جعفر محبوب: سبك خراسانى در شعر فارسى، ص٤٠٤.

وعذوبة ألفاظه في الغزل والوصف فكانت أشعاره بلا ريب لغز حير الأقلام
في الوصف والتشبيه^(١).

ويعد شهاب الدين أحمد بن مؤيد النسفي السمرقندي من كبار الشعراء
في أواخر القرن السادس الهجري وكان كما يقول هدايت: " من أمجاد
حكماء وأعظم فضلاء زمانه " وكان مداحا للأمير أبي المظفر ركن الدين
طمغاج خان حاكم سمرقند، ويتميز شعره بحسن الصنعة ولطف العذوية
وحسن البيان. وله ديوان شعر وقصائد جميلة، وكان من معاصري السوزني
وهجاء^(٢). وكريمي سمرقندي، وهو شمس بهاء الدين عبد الكريم كان من
شعراء أواخر القرن السادس الهجري بسمرقند وخراسان، وكان ذا فضل
وكمال وله أشعار قيمة، وحصل على ثروة ضخمة من قوله الشعر، وكانت
له رحلة واسعة، وطاف البلاد وذهب إلى سجستان^(٣).

وكان دهقان على شطرنجى من الشعراء العظام بسمرقند في القرن
السادس الهجري، من أكثر تلاميذ السوزني تقليدا، والسير على أسلوبه.
وكان أيضا من كبار شعراء الخانية بسمرقند^(٤). ومن أهم أعماله قصيدة
الللكك، وهي قصيدة في غاية اللطف والسلاسة، فكان يقول:

في بلاد ما وراء النهر والشمس ساطعة

(١) ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، جلد دوم، ص ٦١١.

(٢) العروضي السمرقندي: جهار مقاله، ص ١٢٧. محمد عوفى: لباب الألباب،
ص ٥٠٢. هدايت: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣١٠. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، جلد
دوم، ص ٧٦٩، ٧٧٠.

(٣) محمد عوفى: المصدر نفسه، ص ٥٠٥. هدايت: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٨١.

(٤) سعيد نفيسى: تاريخ نظم ونثر در ايران، جلد اول، ص ٩٩. العروضي السمرقندي:
المصدر نفسه، ص ١٢٦. هدايت: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٤٤. براون: تاريخ الأدب في
إيران، ص ٤٣٤.

وطائر اللكلك سعيد وقت قدوم فصل الربيع^(١).

ومن أشهر شعراء وكتاب سمرقند نظامى عروضى سمرقندى (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م) ويعد محمد عوفى من كبار الشعراء، وأن أكثر شعره المثنوى، وعاش نظامى عروضى فى بلاط الغوريين مدة خمس وأربعين سنة، وقام بمدحهم ولا سيما أبو الحسن حسام الدين بن فخر الدين مسعود بن أخت الملك شمس الدين محمد الملك الغورى وألف كتابه جهار مقاله - أو كما يسمى مجمع النوادر - باسم أبى الحسن حسام الدين. وكان نظامى عروضى متأثرا بأشعار رودكى. ومما يؤسف له أنه لم يصلنا من أشعاره إلا النزر اليسير، وكانت أشعاره تمتاز بالمثانة والجزالة والعذوبة^(٢) ومنها:

مولاي نحن فى الدنيا ثلاثة نظاميين تدوى الدنيا باسمنا
أنا فى ورساد أمام عرش ملكى والآخران فى مرو أمام السلطان
والحقيقة أن كلامنا، مفخرة خراسان اليوم
ومع أنهما يقولان شعرا رقيقا كالروح، ومع أنهما يعرفان فن القول
كالحكمة

فأنا الشراب إذا تمكنت منهما نزلا عن صناعتهما^(٣)

(١) ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٦٣٧.
(٢) محمد عوفى: لباب الألباب، ص ٣٩٥. أحمد بيرشك: كارنامه بزرگان إيران، انتشارات راديو، ١٣٤٠، ص ١٤٥. براون: تاريخ الأدب فى إيران، ص ٤٢٥. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، جلد دوم، ص ٩٦١، ٩٦٢. رياحى بور: اطلاعات عمومى، انتشارات زرین، خیابان شاه، ١٣٥٢، ص ١٨٢.

(٣) من بورساد بيش تخت شهم وأن دو در مرو بيش سلطانند
بحقيقت که در سخن امروز هر يکى مفخر خراسانند
کرجه همجون روان سخن کويند ورجه همجو خرد سخن دانند
من شراييم که شان جو دراييم هر دو از کار خود فرو مانند

العروضى السمرقندى: جهار مقاله، ص ٦٠، ٦١.
٣٢١

كما كان الأنورى أُوحد الدين محمد بن عبد الملك (ت ٥٨٣هـ / ١١٨٧م) من أعظم شعراء الفرس، بل هو أحد ثلاثة أطلق عليهم فى الأدب الفارسى أنبياء الشعر، عاش فى عصر السلطان سنجر، وبلغ بقصيدة المدح الفارسىة أقصى قدرته^(١)، ونظم الأنورى قصيدة بناء على طلب أهالى خراسان ووجهها إلى أمير سمرقند محمود بن أرسلان خان الذى كان يتولى حكم سمرقند وقت معركة الغز مع السلطان سنجر سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م يقول فيها:

إذا مررت يا ربح السحر على مدينة سمرقند
فاحملنى رسالة الخراسانيين إلى حضرة الخاقانى
فهى رسالة مطلعها عناء للجسد وآفة للروح
ومقطعها ألم للقلب وحتى للكبد
رسالة تبدو فى سطورها تأوهات الغرباء
وتحوى فى ثناياها دعاء الشهداء^(٢).

وكان حميد الدين محمود الجوهري السمرقندى، من أفاضل الشعراء فى أواخر القرن السادس الهجرى، معاصرا للسوزنى، ملماً بفتون عصره، له باع طويل فى الشعر وفنونه^(٣). وأبو سعيد أحمد بن محمد المنشورى السمرقندى كان من شعراء الخانية فى القرن السادس الهجرى، ويقول عنه

(١) محمد غنيمى هلال: مختارات من الشعر الفارسى، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٥٩، ١٦٠.

Claud Field , Persian Literature, London, 1912, p97,98.

(٢) محمد محمود إدريس: السلطان سنجر، ص ٩٠.

(٣) سعيد نفيسى: تاريخ نظم ونثر در إيران، جلد أول، ص ٩٩. محمد عوفى: لباب الالباب، ص ٣٩٧.

رشيد الدين الوطواط: إنه كان بارعا في نظم الشعر^(١). كما يعد رضى الدين النيسابورى من كبار الشعراء فى أواخر القرن السادس الهجرى وبداية القرن السابع، وهو من المعاصرين للسوزنى، تميز بفصاحة اللسان وعذوبة الألفاظ، غلب على أشعاره المدح، وكان يحظى باحترام الجميع من الحكام ورجال الدين والعامّة، سكن سمرقند ومدح ملوك الخانية وبالأخص السلطان قلع طمغاج خان إبراهيم وابنه ارسلان خان عثمان^(٢).

وكان سيد معين الدين أشرف السمرقندى (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م) من أشهر الشعراء فى سمرقند، ماهرا فى فنون الشعر المختلفة، قام بمدح الملك بيغو وصحبه إلى العراق ثم رحل إلى أصفهان وكان مرتبطا بالشعراء المعاصرين له، ثم سلك طريقه إلى السلطان طغرل بك السلجوقى آخر سلاطين السلاجقة فى العراق، وما لبث أن عاد إلى سمرقند ومات بها^(٣).

كما أمدنا العصر السلجوقى فى مدن إقليم الصغد بعدد كبير من الشعراء الرسميين والشعبيين، طالعنا هذا العصر أيضا على شعراء علماء وفقهاء قدموا لنا نماذج من أشعارهم فى غاية من الرقة والسلاسة مما يؤكد إجادتهم فيه، وكان هؤلاء يمثلون الطبقة المثقفة. ومن أشهرهم القاضى الإمام أبو زيد عبيد الله بن عمر بن عيسى الدبوسى (ت ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م) صاحب الأسرار والتقويم والأمد الأقصى وغير ذلك، وله شعر رائع منه:

جهدت لتأصيل الدلائل للسورى فوفقنى ربي وما طاش من سهم

(١) العروضى السمرقندى: جهار مقاله، ص ١٢١.

(٢) اسفزارى: روضات الجنات فى أوصاف مدينة هرات، تعليق وحواشى سيد محمد كاظم امام، تهران، ١٣٣٨، ص ٧٠. سعيد نفيسى: المصدر نفسه، جلد أول، ص ٩٩. عبد العظيم رضاى: تاريخ ده هزار ساله إيران، جلد سوم، ص ١٤٢.

(٣) سعيد نفيسى: المصدر نفسه، جلد أول، ص ٨٧.

وأحييت ما قد مات من سنن الهدى لمستنبطى الأحكام بالرأى والفهم^(١)
كذلك كان أبو القاسم أسعد بن علي بن أحمد البارع الزوزنى
(ت ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م) فريد عصره وأوحد دهره له القصائد الحسنة والمعانى
الدقيقة وقد شاع ذكره، وأنشد بمرقند:

أبو بكر حبانى الله مالا أكان بشأنه يجزى بلالاً

لقد واسى النبى بكل شىء وأعتق من ذخائره بلالاً

لو أن البحر أبغضه اعتقادا لما أبقى الإلاه به بلالاً

ولما فتح السلطان ملكشاه قلعة سمرقند، وأمر بنقضها، أنشد:

عنى المعاول والحيطان راقصة وللنجوم استماع؛ والقنا ثمل^(٢)

وكان أبو المعالى قيس بن إسحاق بن محمد بن أميرك المرغينانى
(ت ٥٢٧هـ / ١١٣٢م) مقيماً بمرقند وله شعر رقيق:

قل للأمير أدام ربى عزه أناله من فضله مخزونة

أنى جنيت ولم يزل نبل الورى يهبون للخدم ما يحبونه

من كان يرجو عفو من هو فوقه عن ذنبه فليعف عن من دونه^(٣)

كما كان أبو هارون موسى بن إبراهيم بن عبد الله القحطاني المغربي
الاعماتى (ت بعد ٥٢٩هـ / ١١٣٥) إماماً فاضلاً مناظراً، رحل إلى بلاد ما
وراء النهر وسكن سمرقند وذكره أبو حفص فقال: قدم علينا سنة (٥١٦هـ /
١١٢٢م) وهو شاب فاضل فقيه مناظر شاعر بليغ، بقى فى بلاد العراق
وخراسان وبخارى وسمرقند ثلاث عشرة سنة، ينشر الحديث والفقهاء، وبقى

(١) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص ٤٦٧

(٢) عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر، ج ٢، ص ٨٧، ٨٨.

(٣) القرشى: الجواهر المضية، ج ٢، ص ٧١٢.

عندى أياها وكتب عنى الكثير، ولأجله جمعت كتابا لقبته: عجالة النخشي
لضيفه المغربى، وذكر أنه قيل فيه:

لقد طلع الشمس من غربها على خافقيها وأوساطها
فقلت القيامة قد أقبلت فقد جاء أول أشرطها
وفيه قلت أيضا:

سر قرب الشيخ موسى كل قلب كان يوسى
ومحا الهم كما يمحو شعور الرأس موسى
أنشدنى موسى الأغماتى لنفسه:

لعمر الهوى أنى وإن شطب النوى لذو كبد حرى وذو مدمع سكب
فإن كنت فى أقصى خراسان نازحا فجسمى فى شرق وقلبى فى غرب^(١)

كما كان أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل النسفى
السمرقندى (ت ٥٣٧هـ / ١١٤٢م) من كبار علماء سمرقند عارفا بالمذهب
والأدب، له شعر حسن مطبوع على طريقة الفقهاء والحكماء^(٢) ومنه:

الله بالوالدين وصانا وعن أذى الوالدين نهانا
من بعد إلزامنا عبادته قال وبالوالدين إحسانا^(٣)

له أيضا: كلم الرسول جوامع الكلم ولوامع الأحكام والحكم

(١) الأسنوى: طبقات الشافعية، ج١، ص ٥٩. السمعانى: الأنساب، ج١، ص ١٩٤،
١٩٥. النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص ٧٠٥. ياقوت الحموى: معجم
الأدباء، مج ٤، ص ٤٧١.

(٢) السمعانى: التحرير فى المعجم الكبير، ج١، ص ٥٢٧، ٥٢٩.

(٣) النسفى: المصدر نفسه، ص ٢٢٩.

فتطلبوا الأخبار واغتموا أن الحديث أجل مغتم^(١)

له أيضا: كم ساكت أبلغ من ناطق وراجل أشجع من فارس

ولاحق يسبق عربا مضوا بفضل دين وهو من فارس^(٢)

ومنهم أبو زيد محمد بن محمد بن إسماعيل الاسفرنجى
(ت. ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م) كان فقيها من بيت العلم، ورد سمرقند وزار السمعاني
وكان فاضلا حسن المحاوره، مليح الشعر، دخل على السمعاني واعتذر عن
تأخره بييتين أنشدهما لنفسه:

من حق عبدك أن يمشى إليك كما يمشى العبيد إلى أبواب سادات

لكننى خائف أن لا أعوقك عن ورد العبادات أو ورد الإفادات^(٣)

وأبو الليث أحمد بن شيخ الإسلام أبي حفص عمر النسفى السمرقندى
(ت. ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م) فقيها حسن الهيئة غزير العلم واسع الحفظ، صنف
التصانيف المفيدة النافعة، أنشد وهو خارج من بغداد:

يا عالم الغيب والشهادة إن بتوحيدك الشهادة

أسأل فى غربتى وكربى منك وفاة على الشهادة

ورزقه الله الشهادة وهو فى الطريق إلى سمرقند وذلك عندما وصل
قومس، فخرج جماعة من أهل القلاع وقطعوا الطريق على القافلة وقتلوا
مقتلة عظيمة من العلماء^(٤).

(١) عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر، ج٢، ص١٢١.

(٢) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، ج٦، ص١٠٤.

(٣) السمعاني: الأنساب، ج١، ص١٤٥.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٢٦. ابن الجوزى: المنتظم، ج١٠،

ص١٧٧.

أنشد للسمعاني لفظا قال أنشدني والدي لنفسه:

يا صاحب العلم أترضى بأن يسعد قوم ولك الشقوة

كفاك الله سبحانه لا يكن غيرك أوفى منك بالخطوة^(١)

كان أبو بكر بن أحمد بن علي بن عبد العزيز البلخي الأصل
السمرقندي (ت ٥٥٣هـ / ١١٥٨م) من أشهر الفقهاء، وله شعر جيد:

يا زائدا في أكله لقمة أسقمت جسما سالما بالتخم

فيالها من لقمة أسقمت جسما وردت عدة من لقم^(٢)

كما تميز أبو بكر عبد الله بن علي بن صائغ بن عبد الجليل الفرغاني
(ت ٦١٦هـ / ١٢١٩م) نزيل سمرقند، بالقدرة على الإنشاء نظما ونثرا وفصاحة
اللسان وعذوبة الألفاظ، وكان متولى الخطابة، وأنشد لنفسه:

تحر فديتك صدق الحديث ولا تحسب الكذب أمرا يسيرا

ومن كان بالكذب مستهترا سيدعو ثورا أو يصلى سعيرا^(٣)

وكان أبو منصور محمد بن سليمان بن قتلمش السمرقندي
(ت ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) بارعا في الأدب وبالأخص الشعر. ومن شعره:

سئمت تكاليف الحياة وكر الصباح بها والمساء

وقد صرت كالطفل في عقله قليل الصواب كثير الهذاء

أنام إذا كنت في مجلس واسهر عند دخول الغناء

(١) تقي الدين التميمي: الطبقات السنية في تراجم الحنفية، ج ١، ص ٤١٧. القرشي:
الجواهر المضية، ج ١، ص ٢٢٧.

(٢) القرشي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٠٤، ١٠٥.

(٣) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج ٦، ص ١٢٥.

وقصر خطوى قيد المشيب وطان على ما عنانى عناء
وما جر ذلك غير البقا فكيف ترى سوء فعل البقاء
وقال أيضا:

يا قوم ما بى مرض واحد لكن بى عدة أمراض
ولست أدرى بعد ذا كله أساحط مولاى أم راضى^(١)
تميز الشعر الفارسى فى مدن إقليم الصغد خلال العصر السلجوقى بعدة
خصائص منها:

- ١ - انعكاس مضامين الشعر العربى وأفكاره فيه
- ٢ - خروج الشعر من محيط البلاط المحدود، واتساع موضوعاته،
وبسطة بيانه،
- ٣ - عرض عقائد الزهد والتصوف بأبلغ أسلوب، والدعوة إلى العزلة
والاعتكاف
- ٤ - الاهتمام الكبير بإيراد المعانى والمضامين الدقيقة فى المديح مما تسبب
عنه الإبهام والغموض
- ٥ - إيراد أبسط الأساليب وأقربها إلى الطبيعة فى الغزل^(٢).

كانت شهرة الشاعر تعتمد على درايته الكبيرة فى أكثر من فرع من فروع
العلوم. حيث ساد الاعتقاد بأنه كما يفيد الشعر فى كل علم فإن كل علم

(١) ابن شامة: تراجم القرنين السادس والسابع، المعروف بالذيل على الروضتين، القاهرة،
١٩٤٧، ص ١٣٥. الصفدى: الوافى بالوفيات، ج ٣، ص ١٢٥. الكتبى: فوات
الوفيات، ج ٣، ص ٣٧٠، ٣٦٩. عمر فروخ: تاريخ الأدب العربى، ج ٣، ص ٤٧٥،
٤٧٦.

(٢) أحمد كمال الدين حلمى: عمر الخيام، ص ٥٨.

يفيد في الشعر، وتعددت موضوعات الشعر، ونظم الشعراء في كل ما نظم فيه سابقوهم من المشاهير^(١).

صفوة القول ارتقى فن الأدب في إقليم مدن الصغد وبلغ أوج رقيه خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين وتبارى الحكام في جمع الشعراء والكتاب حتى يظفروا بمدحهم والإشادة بفضائلهم ومن ثم كثر عدد الشعراء والكتاب المجيدين.

علم التاريخ والجغرافيا والكلام والفلسفة

علم التاريخ

التاريخ لغة يعنى التعريف بالوقت، واصطلاحاً علم يبحث في وقائع الماضي وأوقاتها^(٢). وكلمة التاريخ لم يرد ذكرها في القرآن الكريم والحديث وأشعار العرب قبل الإسلام، وعرفها المسلمون عن الفرس من كلمة "ما روز" أى حساب السنين والشهور القمرية، ومنها اشتق العرب كلمة تاريخ ومؤرخ^(٣)، وقال تعالى: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ"^(٤).

يعرفه ابن خلدون بأنه: "فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج إلى مأخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن

(١) أحمد كمال الدين حلمي: المرجع نفسه، ص ٦٠، ٥٩.

(٢) رحيم كاظم محمد الهاشمي وعواطف محمد العربي شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٧٧.

(٣) عصام الدين عبد الرؤوف الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى، ص ٢٥٤.

(٤) يونس: آية ٥.

نظر وتثبت يفيضان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط^(١).
لا شك أن انتشار الإسلام أسهم في تنمية الوعي التاريخي عند العرب
والمسلمين فقد وردت في القرآن الكريم أخبار عديدة وإشارات إلى الأمم
السابقة والأنبياء والرسل الذين سبقوا النبي محمد عليه الصلاة والسلام،
وبذلك وجه القرآن الكريم أنظار المسلمين للاهتمام بالتاريخ لما فيه من قصص
وأخبار عن الأمم السابقة. كما كان الاهتمام بتتبع حياة الرسول وغزواته
وتعاليمه وسيرته، وتسجيل كل ما يمس حياته وصفاته بصدق وأمانة دوراً لا
ينكر في تنمية الحس التاريخي عند العرب^(٢).

ظهرت طائفة من المؤرخين الذين كتبوا في موضوعات شتى وألفوا كتباً
كثيرة شملت الحياة السياسية والعقلية والعقائد والأخلاق والأدب وسائر
العلوم، ويتضح ذلك من خلال تنوع الدراسات التاريخية في هذا العصر التي
احتوتها كتب التراجم، وتعتبر من أهم أنواع الكتابة التاريخية في هذه
المرحلة، عنى بها المؤرخون المسلمون في مدن الصغد خلال هذا العصر عناية
فائقة، فما أن يظهر أحد من المتخصصين في أى فرع من فروع العلم والمعرفة
إلا وتناولته كتب التراجم بالكتابة عن تفاصيل حياته ودراسته وتخصصه
وإسهاماته العلمية وشيوخه وتلامذته. وتميزت هذه المعاجم التاريخية بجمع
التفاصيل المثورة في تضاعيف الكتب، وتنسيقها وترتيبها^(٣).

يعد أبو العباس جعفر بن محمد بن المعتز بن محمد المستغفرى
السمرقندى (ت ٤٣٢هـ / ١٠٤٠م) من أبرز العلماء في هذا العصر إذ كان
اهتمامه منصباً على الحديث، رحل في طلب العلم إلى خراسان وأقام

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٠.

(٢) رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف محمد العربى شنقارو: المرجع نفسه، ص ١٧٨.

(٣) مريزن سعيد مريزن عسرى: الحياة العلمية في العراق، ص ٤٣٠، ٤٣١.

بسرخص ومرو مدة، سمع الحديث من جماعة كثيرة، صنف التصانيف العديدة منها: معرفة الصحابة، وكتاب الخطب النبوية، وكتاب دلائل النبوة^(١)، وكتاب تاريخ سمرقند، وكتاب تاريخ نسف الذى يقع فى مجلدين كبيرين^(٢). والحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن محمد الأصبهاني المعروف بالدقاق (ت ٥١٦هـ/ ١١٢٢م) نزيل سمرقند، رحل فى طلب الحديث، سمع من كثير من الشيوخ فى طوس وهرارة وبخارى وسمرقند، وله رحلة ذكر فيها ألف شيخ أخذ عنهم فى معجم مشايخه^(٣).

وكان أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عمر بن الأشعث السمرقندى (ت ٥١٦هـ/ ١١٢٢م) من كبار حفاظ الحديث، كان يقرأ للوزير نظام الملك على الشيوخ ويفيده عنهم، عمل لنفسه المعجم فى ثمانية أجزاء^(٤). كذلك كان أبو القاسم إسماعيل بن أحمد بن عمر الأشعث السمرقندى (ت ٥٣٦هـ/ ١١٤٢م) من أبرز المؤرخين، عارفا بالرجال، من آثاره كتاب من فضائل العباس بن عبد المطلب^(٥) وكتاب معجم الشيوخ^(٦).

كما كان أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن لقمان

(١) السمعاني: التعبير فى المعجم الكبير، ج ٢، ص ١٤٧.

(٢) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص ١٧.

(٣) الذهبى: تذكرة الحفاظ، ج ٤، ص ١٢٥٥، ١٢٥٦. عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر، ج ٣، ص ١١٠. عمر رضا كحالة: معجم مصنفى الكتب العربية فى التاريخ والجغرافية والرحلات، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦، ص ٥٢٧.

(٤) ابن الجوزى: المنتظم، ج ٩، ص ٢٣٨. الذهبى: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٦٣، ١٢٦٤. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٩١.

(٥) ابن الصلاح الشهرزورى: طبقات فقهاء الشافعية، ج ١، ص ٤٢٦. عمر رضا كحالة: المرجع نفسه، ص ٩٥.

(٦) العسقلاني: لسان الميزان، ج ٦، ص ٢٧٦، ٢٧٧.

النسفي السمرقندي (ت ٥٣٧هـ / ١١٤٣م) من كبار المؤرخين، من أهل نسف، سكن سمرقند، وهو إمام فقيه عارف بالمذهب والأدب صنف التصانيف في الفقه والحديث وكان مرزوقا في الجمع والتصنيف، وكان شيوخه كثيرين، جمعهم في كتاب سماه تعداد الشيوخ لعمر مستطرف على الحروف، جمع فيه شيوخه وهم خمسمائة وخمسون شيخا^(١)، وكتاب الإجازات المترجمة بالحروف المعجمة، وهذا الكتاب مخصص لمن أخذ عنهم إجازة في الرواية، وقد وردت أسماء بعض شيوخه وأهمهم ممن كانوا حلقة وصل بينه وبين أصحاب المؤلفات التي ربما أفاد منها في تأليفه كتاب القند في ذكر علماء سمرقند، ومن أفرط في النقل عنهم إلى درجة أنه كان يختصر بداية الإسناد لكثرة تكراره. وأهمهم الحسن بن عبد الملك بن علي بن موسى ابن اسرافيل النسفي (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) الذي كان يلازم المستغفرى وسمع منه الكثير ويرد في القند بهذا الشكل. والمستغفرى (ت ٤٣٢هـ / ١٠٤٠م) مؤلف تاريخ نسف^(٢).

وأبو حفص عمر بن أحمد بن محمد بن شبيب الديزكى السمرقندي (ت ٥١١هـ / ١١١٧م) الذي روى عن أبي حفص عمر بن أحمد بن محمد بن الحسن الفارسي الشاهيني (ت ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م) والذي روى بدوره عن عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عبد الله الاسترابادي الإدريسي (ت ٤٠٥هـ / ١٠١٤م)^(٣) مؤلف كتابين مهمين، ويرجح أن عمر النسفي أفاد منهما وهما: تاريخ إستراباد، والكمال في معرفة الرجال بسمرقند. وورد في

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣٦، ص ٤٤٧، ٤٤٨. العسقلاني: لسان الميزان، ج٤،

ص ٣٢٧. ابن قطلوبغا: تاج التراجم، ص ١٦٣.

(٢) Paul, The Histories of Samarqand, p70-71

(٣) النسفي: القند في ذكر علماء سمرقند، ص ١٥-١٧.

القند أن اسمه الكمال في معرفة الرجال من علماء سمرقند. وكان الإدريسي من أهل إستراباد، سكن سمرقند، إلى حين وفاته وكان حافظا جليل القدر كثير الحديث، رحل في طلب العلم وكتب الحديث على إتقان ومعرفة تامة^(١).

اختصر كتاب القند تلميذ أبي حفص عمر النسفي، أبو الفضل محمد ابن عبد الجليل بن عبد الملك بن علي بن حيدر السمرقندي المؤرخ، وسماه "منتخب القند في تاريخ سمرقند"^(٢) وكان معظم الكتاب تشغله الأحاديث النبوية وسير الأولياء والكلام على أضرحتهم، مع إشارات وافية عن أوقات زيارتها وما يرتبط بذلك من شعائر^(٣).

ويعد بهاء الدين محمد بن علي بن محمد بن الحسن الظهيري الكاتب السمرقندي (ت ٥٥٦هـ / ١١٦٠م) أحد مشاهير الكتاب في عصر السلاجقة، كان يتولى رئاسة ديوان الرسائل لطمغاج، وتستند شهرة المؤلف أساسا إلى مصنفه الأدبي وهو سندباد نامه، وله أيضا: مصنف تاريخي وهو كتاب أغراض السياسة في أعراض الرياسة، ويشتمل الكتاب على لطائف كلام الملوك وتراجم لسيرهم من عهد جمشيد إلى عهد قلع طمغاج خان إبراهيم الذي أهدى إليه الكتاب، ويغلب على روايته الطابع القصصي^(٤).

(١) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٣، ص ١٠٦٢. السمعاني: الأنساب، ج١، ص ٩٧.

السيوطي: طبقات الحفاظ، ص ٤١٥. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٨، ص ٢٥٥.

Paul, OP.cit,p70-71

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص ١٣٥٦. السيوطي: بغية الوعاة، ج٢،

ص ٤٠. عمر رضا كحاله: معجم مصنفى الكتب العربية فى التاريخ والتراجم والجغرافية

والرحلات، ص ٥٠٦.

(٣) بارتولد: تركستان، ص ٧٩.

(٤) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة فى التاريخ والحضارة، ص ٢٨٢. أمين عبد المجيد

بدوى: القصة فى الأدب الفارسى، ص ٣٢٩. بارتولد: تركستان، ص ٨٢.

والإمام الحافظ تاج الإسلام أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني التميمي المروزي (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م) كان من أشهر أئمة المسلمين في علوم كثيرة، وكان أقرب هذه العلوم إليه علم الحديث لذلك احتل في الحديث مكانة كبيرة، حيث كان واسطة عقد بيت السمعاني وعينهم الباصرة ويدهم الناصرة، إليه انتهت رئاستهم وبه كملت سيادتهم، نشأ في بيت كل أفراد علماء وحفاظ وفضلاء، مما أتاح للسمعاني أن يسلك طريقهم ويتلقى عنهم ويستفيد منهم، وهذا الذي شجعه فكان عالماً متبحراً^(١) قطع المسافات والآفاق والتقى بالعلماء، وكان وافر الهمة في طلب العلم، شديد الحرص على لقاء المشايخ. وتلقى أبو سعد علوم الحديث، وشتات المعرفة على عدد كبير من المشايخ^(٢) واتسعت رحلته فعمت بلاد خراسان والعراق والحجاز والشام وطبرستان وبلاد ما وراء النهر ودخل سمرقند وأخذ الكثير عن مشايخها^(٣)، وكان من بين مشايخه للحدثون، والحفاظ، والفقهاء، والمناظرون، وقيل كان عدد شيوخه يزيد على أربعة آلاف شيخ، روى عن كل منهم إما قليلاً أو كثيراً، وكانت كثرة مشايخه تدل على ما بذله من جهد كبير وصبر على المضاعب والسعي الطويل الشاق^(٤).

فسر أبو سعد حبه للحديث، وكثرة مسموعاته في كلامه على معاجم شيوخه بقوله: "لأن الله تعالى جده، وتوالى جوده، قد كان حفيابى،

(١) السمعاني: الأنساب، ج١، ص ١٠. زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ٦٨. عبد الصاحب عمران الدجيلي: أعلام العرب في العلوم والفنون، ج١، ص ٢٨١، ٢٨٢.

(٢) البخارى: التاج المكلل، ص ٧٦.

(٣) السمعاني: المصدر نفسه، ج١، ص ١١. السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٧، ص ١٨٠، ١٨١.

(٤) أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٢٦٥. زكى محمد حسن: المرجع نفسه، ص ٦٨.

ووليا لى: حيث حجب إلى الحديث، وزينه فى قلبى، ورزقتى سماع كل سنة حسنة، ووقفنى لشد الرحال إلى محال الترحال حتى رأيت الأفاضل والمقانع قبل أن تصير الديار منهم بلاقع واجتمع عندى من مكتوم الفوائد ومختوم الزوائد وفقر المسموعات وبقر المجموعات ما لا أعلمه اجتمع لواحد من أبناء المشيخة إلا شاء الله من أهل الدهر" (١).

ملاً أبو سعد صفحات كثيرة من مؤلفات ضخمة بتراجم شيوخه، منها: كتاب العوالى، فى اثنين وثلاثين جزءاً خرج له لولده أبى المظفر عبد الرحيم (٢) وكتاب المعجم، فى ثمانية عشر جزءاً خرج له لولده أبى المظفر عبد الرحيم أيضاً (٣)، كما جمع لنفسه معجماً آخر لشيوخه، يضاف إلى ذلك أنه ذكر عدداً كبيراً من مشايخه الآخرين فى مؤلفات غيرها مثل الذيل على تاريخ بغداد، وتاريخ مرو، وكتاب الهداية، وكتاب التحبير فى المعجم الكبير، وكتاب مقام العلماء بين يدى الأمراء (٤) وكتاب الأنساب الذى لخصه ابن الأثير فى كتابه اللباب فى تهذيب الأنساب (٥) كما اختصره السيوطى بعنوان لب الألباب فى تحرير الأنساب (٦).

شرح السمعانى يجمع كتاب الأنساب فى سمرقند سنة (٥٥٠هـ/ ١١٥٥م) (٧) بناء على رغبة عمر بن على البسطامى الذى قابله فيها. وجمع

(١) السمعانى: التحبير فى المعجم الكبير، ج١، ص ٢٢، ٢١.

(٢) السمعانى: المصدر نفسه، ج١، ص ٢١.

(٣) البخارى: التاج المكلل، ص ٧٦.

(٤) السمعانى: الأنساب، ج١، ص ١٢، ١١.

(٥) سراج الدين أبو حفص المصرى: طبقات الأولياء، تحقيق نور الدين شريعة، ط ٢، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٦، ص ٤٠.

(٦) أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٢٦٨.

(٧) منيرة ناجى سالم: تاج الإسلام أبو سعد السمعانى وكتابه التحبير فى المعجم الكبير، ص ٢٦٥.

فيه بضعة آلاف من التراجم مرتبة على حروف المعجم، ونسب كل واحد منها إلى بلد أو قبيلة أو صناعة أو تجارة أو غير ذلك، فكان يضبط حروف النسبة ويشرحها، ولا مرأ أن أبا سعد بذل قصارى جهده فى معجمه لاستقصاء الأنساب التى اشتهرت بها جماعة العلماء والشيوخ وغيرهم من الشخصيات التى خلفت أثرها فى الإسلام^(١). أما عن الأسلوب الذى اتبعه فى كتابه الأنساب فإنه يشبت تطور الفكر التاريخى عند مؤرخى المسلمين فى العصور الوسطى، وذلك بإعطائه فكرة واضحة عن الأشخاص ويشرح معانى الأنساب ويشتمل كلامه على الأسماء التى فى مدن الصغد وبلاد ما وراء النهر خاصة على مادة هامة^(٢).

كذلك كان أبو أحمد معمر بن عبد الواحد بن رجاء بن عبد الواحد بن محمد بن الفاخر القرشى السمرقندى الاصبهانى (ت ٥٦٤هـ/١١٦٩م) من كبار الحفاظ زار بغداد سبع مرات وسمع منه ابن الجوزى، وصنف كثيرا فى الحديث والتواريخ والمعاجم^(٣).

علم الجغرافيا

الجغرافيا كلمة يونانية مركبة من "جيه" أى الأرض، و"غرافيا" أى ارسم، فعرّبها المسلمون بمعنى علم تقويم البلدان، وهى علم يبحث فى أحوال الأرض من حيث تقسيمها إلى الأقاليم والجبال والأنهار والمعتدل من الأقاليم والمنحرف، واختلاف أحوال العمران فى الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك فى أبدان البشر وأخلاقهم^(٤).

(١) أحمد رمضان أحمد: المرجع نفسه، ص ٢٦٦، ٢٦٨. بارتولد: تركستان، ص ١٠٤.

زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ص ٦٨.

(٢) أحمد رمضان أحمد: المرجع نفسه، ص ٢٦٦، ٢٦٨.

(٣) الزركلى: الأعلام، ج ٧، ص ٢٧٢.

(٤) أحمد عطية الله: القاموس الإسلامى، ج ١، ص ٦١٥. محمد عادل عبد العزيز:

الحضارة الإسلامية وعوامل الازدهار وتداييم الإنهيار، ص ٢٣١.

تطورت الدراسات الجغرافية الإسلامية بمرور الوقت وساعد على تطورها عدة عوامل أساسية وثانوية أبرزها:

١ - الاتصال بالفكر الأجنبي: انحصرت اهتمامات العرب الأولى بالثقافة اللغوية والدينية والتاريخية، وبعد اتصال الفكر العربي بالفكر اليوناني والهندي والإيراني عن طريق الترجمة انكشفت للعرب ألوان جديدة من المعرفة كان من ضمنها المعرفة الجغرافية^(١).

٢ - اتساع الدولة الإسلامية فشملت أقطارا شاسعة وكان لابد من تجميع المعلومات عن الأقطار الجديدة لتيسر إدارتها وحكمها ومعرفة خراجها^(٢).

٣ - ازدهار النشاط التجاري الذي لعب دورا أساسيا ومزدوجا في إثراء المعرفة الجغرافية. وكانت الأسواق الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها مرتبطة بعضها ببعض، وكان التجار يحملون متاجرهم وسلعهم إلى حيث الريح الوفير^(٣). وكانت سمرقند فرضة التجار ومجمع التجارات بلا منافس^(٤). لا شك أن النشاط التجاري تطلب اكتساب المعلومات عن الطرق والمسالك المؤدية إلى الدول المختلفة، وهو أمر لا غنى عنه للتجار، فضلا عن معرفة المدن التجارية الرئيسية وما تشتهر به كل منها من سلع. ومن جهة أخرى تولى التجار ومستخدموهم مهمة جمع المعلومات البشرية والاقتصادية

(١) شاكر خصباك: الجغرافية عند العرب، دار المعارف، تونس، (د.ت)، ص ٧.

(٢) أبو زيد شلبى: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٣٦٦، ٣٦٧. نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب، ص ١١. على فهمى شتا: العالم الإسلامي، مجلة الدائرة، العددان ٣، ٤، ١٩٧٦م، ص ٢٢٣.

(٣) محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ٦. نقولا زيادة: المرجع نفسه، ص ١٥، ١٣٧. على فهمى شتا: المقال نفسه، ص ٢٢٣.

(٤) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص ١٧٨. نقولا زيادة: المرجع نفسه، ص ٥٢.

عن البلدان^(١). ومن أشهر التجار الذين طافوا بالعالم وعرفوا مواقع البلاد عبد الرشيد بن المظفر بن عبد الحميد الخجندی التاجر (ت ٥١٥هـ / ١١٢١م) كان من كبار التجار الجوالين سافر إلى بلاد الترك ودخل الصين وبلاد الهند وبلاد ما وراء النهر ودخل سمرقند وتفقه على البزدوى وآخرين، وكان حنفي المذهب مجبا للحديث وأهله^(٢).

كما كان داود بن أحمد بن سعيد بن خلف بن داود بن عثمان بن عزيزى الطيبي الواسطى التاجر (ت ٦١٧هـ / ١٢٢٠م) من أعيان التجار والنبلاء الكبار الجوالين فى الآفاق وكان شيخا حسن المحاضرة دخل سمرقند وبخارى وجال فى البلدان الإسلامية طلبا للعلم والتجارة^(٣).

٤ - ساهم الحج بنصيب كبير فى تشجيع المعرفة الجغرافية حيث كان من أهم العوامل التى دفعت بالمسلمين من كل فج عميق وعلى كل ضامر إلى الرحلة والانتقال، فكان الحج ولازال يستثير همم المسلمين من شتى أقطار الدولة الإسلامية لشدة الرحلة إلى مكة المكرمة، ولا شك أن حركة التنقل هذه حفزت الكثيرين من أهل العلم إلى تدوين مشاهداتهم^(٤).

٥ - الرحلة فى طلب العلم كانت من أهم مميزات الحركة العلمية فى مدن إقليم الصغد^(٥) فكان العلماء يتخذون الرحلة وسيلتهم لاستتمام العلم،

(١) شاكر خصبك: الجغرافية عند العرب، ص ٨.

(٢) السلفى: معجم السفر، ج ١، ص ١٨٦.

(٣) ابن العديم: بغية الطلب فى تاريخ حلب، ج ٧، ص ٣٤٣١، ٣٤٣٢.

(٤) جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، ج ٣، ص ٧٢٢. حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، ص ٨٩. زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ص ٦. نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب، ص ١٣٨. محمد الخضر حسين: أثر الرحلة فى الحياة العلمية والأدبية، ج ٣، محاضرات المجمع العلمى العربى، دمشق، ١٩٥٤، ص ٣١٨.

(٥) Jorgen Baksimonsen, The Mosque Sultan Shah and Great Mughal, p54

وإكمال المعرفة، وتبادل الخبرات والمعلومات، واختبار الأفكار والنظريات^(١) وكان طلاب الحديث أنشط الناس للرحيل وأصبرهم على العناء^(٢) ومن كبار الرحالة الحافظ محمد بن علي بن حمدان (ت ٤٤١هـ / ١٠٤٩م) رحل في طلب الحديث إلى سمرقند وبخارى ونيسابور^(٣) والحافظ الجوال أبو الوليد الحسن بن محمد بن علي البلخي (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) طوف البلاد وحصل الأسانيد والغرائب وتوفي بسمرقند^(٤). وأبو محمد بن محمد بن أيوب أبو محمد القطواني السمرقندي (ت ٥٠٦هـ / ١١١٢م) سافر البلاد ولقى الشيوخ^(٥). وأبو سعيد هلال بن عبد الرحمن بن شريح بن عمر بن أحمد ابن محمد بن إبراهيم بن سليمان بن بلال بن رباح مؤذن الرسول (ت ٥١٩هـ / ١١٢٥م) له رحلة واسعة شملت معظم البلاد الإسلامية وتوفي بسمرقند^(٦)

٦ - كان بعض الحكام المسلمين يوفدون الرسل والسفراء إلى غيرهم من الحكام والأمراء فدعا ذلك أحيانا إلى القيام برحلات إلى أصقاع لا يألفها المسلمون^(٧) من ذلك رحلة الأمير الحافظ أبي نصر علي بن الوزير أبي القاسم

(١) الجويني: البرهان في أصول الفقه، ج١، ص ٣٥. الجويني: الدرّة المضيّة فيما وقع فيه الخلاف بين الشافعية والحنفية، ص ٣٥. أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام، ص ٦٣.

(٢) ابن عساکر: تاريخ مدينة دمشق، ج١، ص ١٤. حسن جبر: أسس الحضارة العربية الإسلامية، ص ٢٨١.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٧، ص ٦٦٣.

(٤) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٣، ص ١١٥٥. السيوطي: طبقات الحفاظ، ص ٤٣٧. أبو عبد الله الدمشقي: طبقات علماء الحديث، ج٣، ص ٣٥٢، ٣٥٣.

(٥) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ص ٤٣.

(٦) سبط بن الجوزي: المصدر نفسه، ج٨، ص ١١٧.

(٧) محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ١٠.

هبة الله بن على بن جعفر البغدادي الحافظ المعروف بابن ماکولا (ت نيف و ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م) كان لييبا عالما حافظا ترشح للحفظ حتى يقال له، الخطيب الثاني طاف الدنيا وأقام ببغداد، وله كتاب الإكمال في رفع الإرتياب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، وضع الأمير كتابه هذا وفق منهج عملي مفيد واتجه في تصنيفه نحو العمل الموسوعي. أرسله الخليفة المقتدى بالله رسولا إلى سمرقند لأخذ البيعة له على ملكها طمغاج خان^(١). وأبو سعيد يحيى بن على بن الحسن البزاز، المعروف بابن الحلواني (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م) قرأ المذهب على الشيخ أبي إسحاق، وبرع حتى التحق بالأئمة المناظرين، وصنف في المذهب كتابا سماه التلويح، ودرس بالنظامية وولى حسبة بغداد ثم تركها، ودخل سمرقند رسولا من الخليفة ومات بها^(٢). وكذلك الحسين بن على بن أبي القاسم اللامشى السمرقندي الحنفي (ت ٥٢٢هـ / ١١٢٨م) كان إماما فاضلا متدينا يضرب به المثل في النظر وعلم الخلاف، وكان على طريقة السلف من طرح التكلف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان يدخل على الملوك ويقول الحق في وجوههم. قدم رسولا من خاقان سمرقند إلى دار الخلافة فقبل له ألا تحج عامك هذا؟ فقال لا أجعل الحج تبعا لرسالتهم، فعاد إلى بلده^(٣).

(١) ابن جماعة: مشيخة قاضي القضاة، ص ١٢٧. الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ٤، ص ١٢٠١، ١٢٠٣. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج ٥، ص ٥١٣، ٥١٤. ابن ماکولا: الإكمال في رفع الإرتياب، ج ١، ص ٢٩ - ٣٢. أبو عبد الله الدمشقي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٩٣، ٣٩٥. فاطمة محجوب: الموسوعة الإسلامية، ج ٢، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٩١.

(٢) ابن قاضي شهبة: طبقات الفقهاء الشافعية، ج ١، ص ٢٨٣، ٢٨٢.

(٣) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ج ٣، ص ٤٠٢. الذهبي: المشته في الرجال، ج ٢، ص ٦٦٣. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، القسم ١، ج ٨، ص ١٢٧. السمعاني: الأنساب، ج ٥، ص ٦٧١. السمعاني: التجميع في المعجم =

مرت الجغرافيا بعدة مراحل أدت إلى تطورها، ويهمننا هنا في فترة البحث تلك المرحلة التي امتدت من القرن الرابع الهجري إلى القرن السادس الهجري، عندما وصلت الدراسات الجغرافية إلى قمة ما وصلت إليه الجغرافيا العربية، حيث كانت معلومات كتابها تعتمد بالدرجة الأولى على الدراسة والمشاهدة الميدانية والاختبار الشخصي، مما جعلها ذات ثقة وكفاءة عالية. ولم يكن غالبية كتابها في الحقيقة سوى رحالة علميين، ويمكن القول أن الرحلة كانت هي الأساس في هذا النوع من الكتابة^(١). ويعد ازدهار هذا النمط الجديد من الكتابة الجغرافية العربية ثمار ظروف الدولة الجديدة عن تلك البلدان النائية وشعوبها. فلا بد للحكام أن يتعرفوا على طبائع السكان وتقاليدهم، وعلى إنتاج البلاد الزراعي والصناعي وثرواتها حتى يمكن تقدير خراجها، كما لا بد لهم من التعرف على أسماء مدنها والطرق المؤدية لها^(٢).

استفاد المؤلفون من إمكانيات السفر الجديدة التي سادت رقعة واسعة من العالم الإسلامي وهي اتساع شبكة طرق المواصلات وإقامة المنائر ليهتدى بها المسافرون، وتوفر درجة معقولة من الأمن فيها التي قام بها السلطان ملكشاه^(٣) فاخذوا يشدون الرحال ويطوفون في البلدان شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، وكانوا يشعرون في أي بلد يحلون فيه كأنه بلدهم. فأمكن لأولئك الجغرافيين أن يجمعوا معلومات جديدة عن ممالك الإسلام، عن طريق

=الكبير، ج١، ٢٣٤ - ٢٣٦. أبو عبد الله الدمشقي: طبقات علماء الحديث، ج٤،

ص٤٤. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبيصار، ج٦، ص١٠٠، ١٠١. ابن الفوطي:

مجمع الآداب، مج٢، ص٥٨. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص١٩٩.

(١) شاكر خصباك: الجغرافية عند العرب، ص١١.

(٢) شاكر خصباك: المرجع نفسه، ص١١.

(٣) ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٢، ص١٤٢. محمد محمود إدريس: تاريخ العراق

والمشرق الإسلامي، ص١٩٩. محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٢، ص٢٣١.

المشاهدة الشخصية والسؤال والاستقصاء، ولم يعتمد أولئك الكتاب على أنفسهم فحسب في جمع المعلومات، بل ساهم التجار في إغناء معلوماتهم مساهمة عظيمة، ولعبت التجارة دورا هاما في تطور المعرفة الجغرافية لرواد هذه المدرسة^(١).

لعل من أبرز الأمثلة التي تؤيد ذلك " كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " للشريف الإدريسي محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الصقلي القرطبي (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م) رحل إلى المشرق العربي لزيارة مصر وغيرها ثم عاد إلى سبته في المغرب، حيث استقدمه رجار الثاني ملك صقلية إليها ليستقر بها مقربا من بلاط الملك الذي بالغ في تعظيمه. وكان تأليف هذا الكتاب بناء على رغبة الملك رجار الثاني في الوقوف على حقيقة العالم، بكتاب مطابق للخريطة الكروية المصورة له، غير أنه يزيد عليها بوصف أحوال البلاد وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها ومسافاتها مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم، وأمضى الإدريسي في جمع وترتيب مادة كتابه قرابة خمسة عشر عاما، وقسم كتابه إلى مقدمة وسبعة أبواب، وامتاز هذا الكتاب عن غيره من المؤلفات الجغرافية السالفة عليه بأنه يحمل تصورا عاما يشمل الكرة الأرضية كلها على أنها كل واحد جدير بالوصف والتحقيق، المبنى على المشاهدة، والقياس، والمقارنة، والربط بين الأجزاء. وترجع أهمية النزهة إلى أن جل اعتماد الإدريسي في جمع مادته على الجولة والتجارة، بمعنى شاهد العيان مع امتزاج كل ذلك بمشاهدات الإدريسي عينه وخبراته كرحالة وجغرافي وخرائط^(٢).

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج ١، المقدمة. شاكر خصباك: الجغرافية

عند العرب، ص ١٢.

(٢) الإدريسي: المصدر نفسه، مج ١، المقدمة.

كما يعد أبو عبد الله وأبو حامد محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن أبي الربيع المازني القيسي الأندلسي الغرناطي (ت ٥٦٥هـ / ١١٦٩م) من كبار الجغرافيين من علماء تخطيط البلدان، رحل إلى المشرق ودخل بلاد ما وراء النهر وجمع كل ما رآه في أسفاره من عجائب البلدان^(١) ولفت نظره ما وجدته في سمرقند من الكواغيد التي عطلت قراطيس مصر^(٢) وذكره في كتابه تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، وهو في صفة الدنيا وسكانها وصفة عجائب البلدان، وغرائب البنيان والبحار وعجائب حيواناتها، وجمع فيه ما رآه في أسفاره من العجائب وله أيضا كتاب نخبة الأذهان، وكتاب عجائب المخلوقات^(٣).

يعود الفضل إلى هؤلاء الجغرافيين الإقليميين في تشجيع كتاب آخرين - لم يكونوا جغرافيين أساسا - على الاهتمام بالمعرفة الجغرافيا ونشرها في كتاباتهم بصورة غير منهجية. تبحث في أخبار البلدان، وتميل إلى الاهتمام بعجائبها، كما تشتمل على كثير من المعلومات المتنوعة عن البحار والمناخ والكواكب والحيوان والنبات، وكان يكتب هذا النوع من الكتابات كتاب ذوو اختصاصات متعددة، لكن غالبيتهم كانوا من المؤرخين^(٤).

ويمكن القول إن تاج الإسلام أبي سعد عبد الكريم السمعياني (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦م) كان على رأس هذا النمط من الكتابة، حيث اتسعت رحلته فعمت بلاد خراسان وأصبهان وبلاد ما وراء النهر والعراق والحجاز وحج مرتين وعاد إلى وطنه^(٥) وفي رحلته إلى بلاد ما وراء النهر صحب معه

(١) الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص ٥.

(٢) الغرناطي: المصدر نفسه، ص ٣٩.

(٣) الغرناطي: المصدر نفسه، ص ٥.

(٤) شاكر خصباك: الجغرافية عند العرب، ص ١٢.

(٥) الجويني: عتبة الكتبة، ص ٨٦. السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٧، ص ٢٨٠ =

ولده أبا المظفر عبد الرحيم واستغرقت هذه الرحلة ثلاث سنوات طاف بمختلف مدن ما وراء النهر فزار بخارى وسمرقند وكرمينية وسمع بهذه المواضع وأسمع ولده^(١). ولما كانت رحلاته تلك من أجل العلم، فقد التقى بالعديد من الشيوخ والعلماء الذين تكبد مشقة الرحلة وصعابها من أجل الالتقاء بهم والتعرف عليهم حتى ينهل من مناهلهم ويرتوى بمعارفهم.

وقد جمع السمعاني حصيلة رحلاته المتعددة في كثير من المصنفات ومنها كتاب "الإسفار عن حكم الأسفار" ويقع في خمسة وعشرين مجلدا. وكتاب "معجم البلدان" في خمسين مجلدا^(٢) وكتاب ذيل تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي الذي يقع في أكثر من نحو خمسة عشر مجلدا. وكتاب "تاريخ مرو" مسقط رأسه وموطن أهله وعشيرته ويقع في عشرين مجلدا^(٣). ولعل أشهر كتب السمعاني ومصنفاته على الإطلاق كتاب "الأنساب"^(٤) وأبرز ما تميز به هذا الكتاب، تلك التراجم التي جمعها على حروف المعجم، والتي عنى بنسبة كل واحد منهم إلى بلد أو قبيلة أو صناعة أو تجارة أو غير

= ١٨١. السمعاني: الأنساب، ج١، ص ١١. القفطي: إنباء الرواة على أنباء النخاة، ج١، ١٦٧. عبد الصاحب عمران الدجيلي: أعلام العرب في العلوم والفنون، ج١، ص ٢٨١، ٢٨٢. ناجي معروف: عروبة العلماء المنسويين إلى البلدان الأعجمية في خراسان، ج١، ص ٤٦٤.

(١) البخارى: التاج المكمل، ص ٧٦. منيرة ناجي سالم: تاج الإسلام أبو سعد السمعاني وكتابه التحرير في المعجم الكبير، ص ٢١٣.

(٢) السمعاني: المصدر نفسه، ج١، ص ١١. ابن الملقن: العقد المذهب في طبقات حملة المذهب، ص ١٣٥.

(٣) القفطي: المصدر نفسه، ج١، ص ١٦٧. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٢٦٦.

(٤) سراج الدين أبي حفص المصري: طبقات الأولياء، ص ٤٠.

ذلك^(١)، وبالتالي مثل كتاب الأنساب أهمية كبرى بالنسبة لجغرافيا العالم الإسلامي في العصور الوسطى، وله أيضا كتاب " فضائل الشام " وكتاب نزوع إلى الأوطان " يتناول فيه الحديث عن تأسيس مدينة سرخس^(٢).

وبتفكك الدولة الإسلامية وانحلالها سياسيا فقدت المعرفة الجغرافيا الصرفة أصالتها منذ أواخر القرن السادس الهجرى وتقلصت رقعة الدولة الإسلامية، وانقسمت إلى إمارات شبه مستقلة ولم يعد هناك من حاجة إلى الكتب الجغرافيا بالنسبة للحكام، ولم يستطع الكتاب اللاحقون أن يضيفوا أى جديد إلى علم الجغرافيا واقتصروا على مهمة الاقتباس من مؤلفات السابقين، وتنوعت الأنماط الجغرافيا لهذه المرحلة إلا أن التركيز كان على المعاجم الجغرافية والموسوعات والرحلات^(٣). ويعتبر نور الدين محمد بن محمد بن يحيى بن طاهر ابن عثمان العوفى البخارى أحد روادها، وهو من فضلاء أواخر القرن السادس ومنتصف السابع الهجرى، رحل فى طلب العلم ولقاء الشيوخ فطوف بأكثر بلاد ما وراء النهر وخراسان واتصل بعلماء تلك البلاد وعاش فى خراسان وبلاد ما وراء النهر وقضى أيام صباه فى سمرقند إلى أواخر أيام السلطان محمد خوارزمشاه، ونظرا للاضطرابات السياسية وتواتر أخبار الغزو المغولى هاجر إلى بلاط سلطان البنجاب ناصر الدين قباچه^(٤).

بدأ محمد عوفى فى تأليف كتاب جوامع الحكايات ولوامع الروايات قبل سنة (٦٢٥هـ / ١٢٢٨م) وأتمه بعد عام (٦٣٣هـ / ١٢٣٦م) وكمية

(١) أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٢٢٦. زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ص ٦٨، ٦٩.

(٢) أحمد رمضان أحمد: المرجع نفسه، ص ٢٦٨، ٢٦٩.

(٣) شاكر خصباك: الجغرافية عند العرب، ص ١٢، ١٣. نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب، ص ٥٨.

(٤) أمين عبد المجيد بدوى: القصة فى الأدب الفارسى، ص ٣٦٠، ٣٦١. كراتشكوفسكى: تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ص ٣٥٤، ٣٥٥.

الجغرافية فيه ليست بالمهملة بل كانت ذات قيمة عالية، فإلى جانب النقاط العديدة المنتشرة خلال الأقسام المختلفة للكتاب تفوز الجغرافية بمعناها الواسع بالباين السادس عشر والسابع عشر من القسم الرابع، وتبدو خلال ذلك محاولة ملحوظة لعرض المادة في صورة منظمة للعالم كما يراه الجغرافيون مزودة بمعلومات عن بعض الشعوب التي تقطن الأقاليم المختلفة فيتحدث عن الجغرافية الطبيعية ثم يلي ذلك تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم^(١).

يجدر بنا هنا أن نتحدث عن أهم الرحالة والجغرافيين الصينيين الذين صحبوا جيش جنكيزخان أثناء غزوه لبلاد السلطان خوارزمشاه ويعتبر ليو-جيو-تساي (ت ٦٤١هـ/ ١٢٤٣ م) من كبار علماء الجغرافية والفلك والحكمة. وكان قد وقع في أسر جنكيز خان عندما غزا بكين سنة (٦١٢هـ/ ١٢١٥م) ثم أطلق سراحه لما تأكد من كفاءته، وضمه إلى بلاطه ورفع مكانته وصحبه في غزوه لبلاد ما وراء النهر وإقليم الصغد (٦١٦هـ/ ١٢١٩م) وخلف لنا هذا الرحال كتابا به وصف للبلاد والمواضع التي مر عليها، ولكن لسوء الحظ فقد أصل الكتاب ووجد ملخص " له يوصف لنا جغرافية آسيا في العصور الوسطى مع رسم صورة مشوقة لعبور جيش المغول من منغوليا إلى بلاد آسيا^(٢).

كما تعد رحلة الراهب الناسك كيو شانج شون - من بكين إلى بلاد ما وراء النهر من أهم الكتب التي وصفت البلاد والمواضع وأهم العادات والعجائب والغرائب الموجودة في تلك البلاد. وكان هذا الراهب ذا هيبة ومكانة عظيمة في بكين فأرسل إليه جنكيز خان يدعوه ليحضر إلى بلاطه بعد أن سمع برجاحة عقله، واضطر الراهب رغم أنفه إلى الاستجابة لدعوة

(١) كراتشكوفسكى: المرجع نفسه، ص ٣٥٥.

(٢) Bretschneider, Medieval Researches from Eastern Asiatic Sources, vol. 1, pp 9, 10.

الغازى وترك حياة التنسك وعرض نفسه لمخاطر الرحلة الطويلة إلى آسيا الوسطى ووصل إلى سمرقند وقضى بها فصل الشتاء وكان ذلك بعد تحطيم جنكيز خان لها ثم رحل عنها إلى معسكر جنكيز خان لمقابلته، واستغرقت هذه الرحلة ثلاث سنوات، وكتبت تفاصيل هذه الرحلة بواسطة أحد تلاميذه (١).

علم الكلام (٢)

كثرت تعريفات المتكلمين والباحثين لهذا العلم، ومنها: أنه علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية، بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها (٣) ويتضمن هذا التعريف أن المتكلم يتخذ العقائد الدينية قضايا مسلما بها ثم

(١) Ibid, pp35,79,82.

(٢) يسمى علم الكلام بعلم التوحيد أو علم التوحيد والصفات، وسمى أيضا علم أصول الدين لأنه يتعلق بالأحكام الأصلية أو الاعتقادية في مقابل علم الفقه الذى يتعلق بالأحكام الفرعية أو العملية. حيث كان النظر فى الدين بأحكامه وعقائده يسمى فقها، ثم خصت الاعتقادات باسم الفقه الأكبر، وخصت العمليات باسم الفقه. وسميت مباحث الاعتقادات كما أسلفنا بعلم التوحيد والصفات. أو علم الكلام لأن أهم مسألة احتد فيها الجدل بين العلماء هى مسألة كلام الله وهل هو قديم أو مخلوق، أو لأنه يورث قدرة على الكلام فى الشرعيات أو لأنه كثر فيه الكلام مع المخالفين ما لم يكثر فى غيره. السمعانى: الأنساب، ج٥، ص ١٩٠. أحمد محمود صبحى: فى علم الكلام دراسة فلسفية لأراء الفرق الإسلامية فى أصول الدين، ج١، الإسكندرية، ١٩٧٨، ص٩، ١٠. دى بور: تاريخ الفلسفة فى الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريطة، ط٥، القاهرة، ١٩٤٨، ص٩٥. عامر النجار: علم الكلام عرض ونقد، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٦. عبد المنعم الحفنى: موسوعة الفرق، مطبعة الإرشاد، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٨٥.

(٣) حاجى خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص١٥٠٣. طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة، ج٢، ص١٥٠. عامر النجار: المرجع نفسه، ص٥.

يستدل عليها بأدلة العقل حتى وإن أمكن الاهتداء إلى هذه العقائد بالعقل مستقلا عنها، أما العقائد الدينية أو أصول الدين فأهمها التوحيد والنبوة والمعاد، وبالأحرى الإيمان بالله وكتبه ورسوله واليوم الآخر، وتدور هذه المسائل جميعا حول الله ذاتا وصفات وأفعالا^(١)، وهو العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية المكتسب من أدلتها اليقينية^(٢).

بينما عرفه ابن خلدون "بأنه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف أهل السنة"^(٣). وعرفه الغزالي "بأنه إدراك الحقيقة الدينية إدراكا يؤيده العقل، حتى تكون في درجة العلم الرياضى، دقة ووضوح"^(٤).

إذا تأملنا التعريفات السابقة فإنه يمكننا القول بأن علم الكلام هو العلم الذى يقوم على إثبات العقائد الدينية عن طريق الأدلة العقلية^(٥)، ولاشك أن تعريف ابن خلدون قاصر عن أداء المراد فإن هذا العلم يدخل فيه كل حجاج بالأدلة العقلية على إثبات العقائد الدينية سواء كانت صحيحة أو غير صحيحة^(٦). وهذا العلم يبحث فى مسائل عقيدية دقيقة مثل حقائق الصفات

(١) أحمد محمود صبحى: المرجع نفسه، ج١، ص ٢.

(٢) سليمان بن على بن صالح بن عبد العزيز الغصن: موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، ج١، ص ٢٠.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج١، ص ٤٥٨. عصام الدين محمد على: آفاق الحضارة الإسلامية والأوربية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٣، ص ٣٧٥.

(٤) الغزالي: تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٥٥.

(٥) على عبد الفتاح المغربى: الفرق الكلامية الإسلامية، دار التوفيق النموذجية للطباعة، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١١.

(٦) سليمان بن على بن صالح بن عبد العزيز الغصن: موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، ج١، ص ٢١.

الإلهية، والقدر والشر وأعمال العباد والحياة الآخرة وحقيقة النبوة^(١). وكادت نواة علم الكلام تنشأ في حياة الرسول ولكنه ﷺ، قضى عليها ونهى أتباعه عن الخوض في مسائل الغيب، ووجههم الوجهة السليمة. ومن ثم كان الصحابة والتابعون راسخين الإيمان بكتاب الله وسنة رسوله، يتخرجون من الخوض في متشابه القرآن والسنة تحاشيا للزلل والخطأ^(٢).

لكن بابتعاد عصر النبوة وموت كثير من الصحابة، وكثرة الفتوحات الإسلامية، واختلاط المسلمين بغيرهم من أهل العقائد الأخرى، وما ترتب عليه من إثارة هؤلاء بعض الشبهة حول العقيدة الإسلامية، اضطر علماء المسلمين إلى الرد عليهم بمثل منطقهم للدفاع عن العقيدة^(٣). وكان ذلك بدوره دوراً حتمياً في تطور العقيدة، وهو أن يستدل على الإيمان بالعقل وتحمل المعتزلة وزر الخوض عما نهى الرسول ﷺ عنه. وكان طبيعياً أنهم لقوا إعراضاً من التابعين ومن الفقهاء وأهل الحديث. هكذا نشأ علم الكلام غير معترف به كعلم من علوم الدين لدى علماء المسلمين طوال عصر المعتزلة أي القرنين الثاني والثالث الهجريين، ولكن لم يحل عدم الاعتراف دون نشأة هذا العلم^(٤).

على أنه أصبح واضحاً كل الوضوح إبان القرن الرابع للهجرة ألا مفر من بعض التسليم بما ذهب إليه المعتزلة إذ تلبلت أفكار الناس، ومسبت الحاجة إلى تعزيز قواعد الدين من جديد على ضوء الفلسفة الشائعة. واضطلع بهذا الأمر رجلان كان لهما الفضل في تأسيس علم الكلام. وهما أبو الحسن

(١) محمد عادل عبد العزيز: الحضارة الإسلامية، ص ١٨٨.

(٢) سليمان بن علي بن صالح بن عبد العزيز الغصن: المرجع نفسه، ص ٤٠، ٣٩. فمحمد عادل عبد العزيز: المرجع نفسه، ص ١٨٨.

(٣) علي عبد الفتاح المغربي: المرجع نفسه، ص ٤٧.

(٤) أحمد محمود صبحي: في علم الكلام، ج ١، ص ٤٠٧.

الأشعري الشافعي من بغداد (ت ٣٢٤هـ/ ٩٣٤م)^(١) وأبو منصور الماتريدي
الحنفي من سمرقند (ت ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م)^(٢) وقد ظهرا لا على أنهما مؤسسا

(١) أبو الحسن الأشعري: هو علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن بردة بن موسى الأشعري وقيل سمي الأشعري لأن أمه ولدته وهو أشعر. والأشعر من أولاد سبأ الذين كانوا باليمن ثم بعث النبي رهطاً منهم وعلى رأسهم أبو موسى الأشعري إلى الحبشة*. ونشأ أبو الحسن الأشعري في الاعتزال ثم هداه الله إلى الحق، فقام بالذب عن معتقد أهل السنة في عهد استفحال شرور المعتزلة، مستخدماً أدلة خصومه المعتزلة لينقض بها آراءهم وحججهم**. وجاء مذهب الأشعري بمنهج وسط، فلا هو أهمل العقل، ولا هو عصل النص، وإنما رد للنص منزلة اللاتقنة به، وجعل للعقل وظيفته هي إدراك النص وفهمه***.

* أبو الحسن الأشعري: الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق فوقية حسين محمود، دار المنصور، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٩ - ١١.

** أبو المظفر الاسفرايني: التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الهالكين، ص ٥٢. جلال محمد عبد الحميد موسى: نشأة الأشعرية وتطورها، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢، ص ١٩٩. محمد إقبال: تطور الفكر الفلسفي في إيران، ص ٥٨.

Gibb, Arabic Literature, London, 1926, pp49,50.

*** المقرئزي: المواعظ والاعتبار، ج ٤، ص ١٨٤. حيدر لامات: مجالى الإسلام، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٢٠٢. عامر التجار: علم الكلام، ص ٢٧.

(٢) أبو منصور الماتريدي: هو محمد بن محمد بن محمود السمرقندي كان من كبار العلماء تخرج بأبي نصر العياضى، كان يقال له الهدى، له مصنفات كثيرة منها كتاب التوحيد وكتاب المقالات وكتاب رد أوائل الأدلة للكعبى. وهو إمام المتكلمين ومصحح عقائد المسلمين تفقه على أبي بكر أحمد الجوزجاني، وتفقه عليه الحكيم السمرقندي*. وعن مذهب الماتريدي فإنه انطلق من المأثور عن أبي حنيفة في العقائد ووقف موقفاً عقلياً مبسطاً، فقال بإثبات قضايا الشرع بالأدلة العقلية المنطقية وبالبراهين الدافعة، ولكنه لم يبالغ في قيمة العقل كما فعل المعتزلة، وإنما اتخذ لنفسه سبيلاً وسطاً ذلك أنه يأخذ بحكم العقل فيما لا يخالف الشرع، فإذا خالف الشرع وجب الخضوع لحكم الشرع وحده***.

مذهب جديد فى علم الكلام ولا على أن لهما رأيا، وإنما حرصا تمام الحرص كما حرص أتباع كل منهما على أن يظهره أنه للصحابة والتابعين أو بالأحرى لأهل السنة، فاستطاعوا بذلك أن يمهّدوا للاعتراف بعلم الكلام وأن يجعلوا منه أحد علوم الدين، بل يحسن للعلماء الخوض فيه، فأزالا بذلك الحرج عن التعرض لجليل الكلام^(١).

جدير بالذكر أنه ليس بين الأشاعرة والماتريدية خلاف إلا فى بعض المسائل اليسيرة، كمفهوم الإيمان والإسلام، ومعنى القضاء والقدر، وصفة السمع والبصر والكلام النفسى^(٢) وهى مسائل - الخلاف - لفظية ومعنوية لا

* طاش كبرى زاده: طبقات الفقهاء، ص ٥٦. الماتريدى: شرح الفقه الأكبر، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، ١٣٢١هـ، ص ٥. الماتريدى: تفسير الماتريدى، تحقيق إبراهيم عوضين والسيد عوضين، ج ١، ص ٩
*** عادل العوا: الكلام والفلسفة، ص ٤٩.

(١) أحمد محمود صبحى: فى علم الكلام، ج ١، ص ٤٠٧، ٤٠٨.

Ignace Goldziher, A short History of Classical Literature, p53.

(٢) عبد الرحيم بن على شيخ زاده: نظم الفرائد وجمع الفوائد فى بيان المسائل التى وقع فيها الاختلاف بين الماتريدية والأشعرية فى العقائد مع ذكر أدلة الفريقين، المطبعة الادبية بسوق الحضارة القديم، ص ١٠، ١٥، ٢٣. أبو زيد شلبى: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٣٣٦. وعلى سبيل المثال لتوضيح الخلافات التى كانت بين الأشعرى والماتريدى فى مسألة الكلام النفسى هل يسمع أم لا: ذهب الإمام الماتريدى ومن تابعه إلى أن الكلام النفسى لا يسمع. بينما ذهب الأشعرى إلى أنه يجوز سماعه، وأن ما سمعه موسى عليه السلام كلامه تعالى النفسى. فالخلاف إنما هو فى الواقع لموسى عليه السلام هل وقع سماع كلامه النفسى تعالى أم لا. فانكر الماتريدى سماعه الكلام، واستدل بقوله تعالى: فلما رآها نودى يا موسى حيث كان المسموع هو الصوت المحدث لله تعالى رتب النداء على أنه رأى النار فالمرتب على المحدث محدث فالنداء محدث. وفى التفسير الكبير لأهل السنة من أهل ما وراء النهر قد أثبتوا الكلام القديم إلا أنهم قالوا إن الذى سمعه موسى =

توجب تبديعا أو تكفيرا. فالإمامان الأشعري والماتريدي متفقان في أصل عقيدة أهل السنة والجماعة، وأن الخلاف الظاهر بينهما في بعض المسائل لا يطعن في عقيدتهما، فهي أمور فرعية تمت إلى الفروع دون الأصول، ومما لا شك فيه أن الخلاف بينهما لا يوجب الفساد، وأن الاتفاق بينهما يسود أكثر المسائل، وربما ترجع الخلافات القليلة بين الأشعري والماتريدي إلى الخلافات اللفظية بين الشافعي وأبي حنيفة في أصولهما^(١).

ويعد أبو منصور الماتريدي المؤسس للاتجاه الكلامي في المذهب الحنفي في بلاد ما وراء النهر، وتلقى على يده الكثير من التلاميذ والأتباع وامتد آثاره في أنحاء عديدة من البلاد الإسلامية، وانتشر مذهب الماتريدي مواكبا انتشار المذهب الحنفي، وكان على هذا المذهب جميع ما وراء النهر إلى أقصى ثغور الترك ومرو وبلغ^(٢).

لا شك أن السلاجقة لما بدأوا في بلاد ما وراء النهر في بيئة سنية تتبع المذهب الماتريدي الحنفي تأثروا بالحركة الفكرية السائدة في هذه المنطقة، لكن هذا التأثير لم يعد أن يكون تأثيرا عن طريق التقليد، فطبيعتهم البدوية لم تسمح لهم بالتوفيق لأعمال العقل والفكر في قضايا الدين، ولما كان السلاجقة ليس أهلا للنظر والفكر فإنهم لم يشغلوا أنفسهم بهذه المسائل الفكرية وإنما تركوها للوزراء، لذا كان من الطبيعي أن يختلف موقف السلاجقة من مخالفهم في داخل الدائرة السنية باختلاف اتجاهات وزرائهم،

=صوت خلقه الله في الشجر. أما مشايخ الأشاعرة فقد استدلوا على أن ما سمعه كلامه النفسى بقوله تعالى " وكلم الله موسى تكليما " ولذا قال في المقاصد اختصاص موسى بكليم الله لسماعه كلامه تعالى الأذلى بلا صوت ولا حرف. عبد الرحيم بن علي شيخ زاده: المصدر نفسه، ص ١٥، ١٦.

(١) جلال محمد عبد الحميد موسى: نشأة الأشعرية وتطورها، ص ٢٨٠.

(٢) علي عبد الفتاح المغربي: الفرق الكلامية الإسلامية، ص ٣٤١، ٣٤٣.

ومن ثم نستطيع أن نغيز في الموقف السلجوقي من هذه الناحية بين عهديين لوزيرين مختلفين: أولهما عميد الملك الكندري، الذى وزر لطغرل بك وكان حنفيا متعصبا، وثانيهما نظام الملك الذى كان شافعيًا وزر لألب أرسلان وملكشاه^(١). أما الكندري فاستأذن السلطان فى لعن الرافضة على منابر خراسان، فأذن له، فأمر بلعنهم وأضاف إليهم الأشعرية. وظلت الفتنة قائمة وعلماء الأشعرية مشردين عن أوطانهم حتى توفى طغرل بك (٤٥٥هـ/١٠٦٣م) وتولى ابن أخيه ألب أرسلان واتخذ لنفسه وزيرًا شافعيًا هو نظام الملك، فأكرم الأشاعرة وأحسن إليهم وأمر بإسقاط ذكرهم من السب وبنى للأشاعرة المساجد والمدارس^(٢).

فتدعمت الأشعرية بقوة سياسية مكنتها من إحراز الفوز النهائى على خصومها، فأخذت تزداد حظوة بالنجاح. ولا شك أن للمذاهب الفقهية دورًا رئيسيًا فى نشر الآراء الاعتقادية، فالمذهب الأشعرى قد نصره مذهبان فقهيان، هما: المالكية والشافعية، بينما شاعت آراء الماتريدية على يد علماء المذهب الحنفى فحسب. ومن ثم لم ينل الماتريدى شهرة الأشعرى^(٣).

هكذا كون فكر الأشاعرة والماتريدية مذهب أهل السنة والجماعة فى

(١) عبد المجيد أبو الفتوح بدوى: التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى، ص ١٠٨، ١٠٩.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٥٤. الجوينى: لمع الأدلة فى قواعد عقائد أهل السنة والجماعة، ص ٢١ السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٨. جلال محمد عبد الحميد: نشأة الأشعرية وتطورها، ص ٣٧٣. عبد المجيد أبو الفتوح بدوى: المرجع نفسه، ص ١١١.

Frank Griffel, Apostasie und Toleranz in Islam, die Entwicklungszustände Gazalis, Urteile Gegen die Philosophie und die Reaktionen der Philosophie, Reviews Ismaili and Fatimid History, Jerusalem Studies in Arabic and Islam, vol.27, 2002, p595.

(٣) بلقاس الغالى: أبو منصور الماتريدى حياته وآراؤه العقدية، تونس، ١٩٨٩، ص ٤٣.

أصول العقائد وعرف أتباع المذهبين بأهل السنة، وكما قدر للأشعري أن يكون له تلاميذ ومريدون ينصرون مذهبه، كذلك كان للماتريدي تلاميذه وأتباعه الذين عملوا على نصرة مذهبه^(١). ومن أعلام المدرسة الماتريدية صدر الإسلام أبو اليسر محمد بن الحسين بن عبد الكريم البزدوى (ت ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م) قاضى سمرقند، وقضى بهذه المدينة معظم سنى حياته، وفيها قام بنشاطه الأكبر كأستاذ ومؤلف، وفيها أيضا ألقى معظم مؤلفاته، وقام بتدريس الفقه وعرف بأنه أقدر المساجلين، وانتهت إليه رئاسة الحنفية فى بلاد ما وراء النهر، وكان قد تلقى تعليمه الأولى على يد أبيه الذى لقنه تعاليم جده عبد الكريم أنذى تلقاها بدوره عن أبى منصور الماتريدى، ثم درس أبو اليسر على كبار علماء الحنفية وبعدها انتقل إلى أئمة آخرين^(٢).

درس البزدوى بجانب دراساته الشفوية ما كتبه علماء الفقه السابقون، ويبدو أنه تعمق فى دراسة آراء الأشعري كما يظهر من قوله: " لقد درست هذه الكتب سوى كتاب المؤجز، ومقالات لإسلاميين"، وعرف البزدوى من مؤلفات أبى منصور الماتريدى كتاب التوحيد، وكتاب تأويلات القرآن^(٣).

وللبزدوى مؤلفات كثيرة قيمة من أهمها "كتاب أصول الدين" وهو يضم مختلف النظريات والآراء الكلامية، ويعبر عن المذهب الماتريدى ويتعرض لكل الآراء المتشعبة للتعاليم الدينية منذ بدء الخلاف فى هذه الآراء فى الإسلام حتى العصر الذى عاش فيه المؤلف، ولقد اعتمد البزدوى على آراء الماتريدى الكلامية، وذكرها فى كثير من المسائل وكان يعد دائما الرأى

(١) عبد المجيد أبو الفتوح بدوى: المرجع نفسه، ص ١١١

(٢) البزدوى: كتاب أصول الدين، تحقيق هانز بيترلسن، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ١٠، ١١،

١٣. الذهبى: سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ٤٩. اللكنوى: الفرائد البهية، ص ١٢٥.

الزركلى: ترتيب الأعلام على الأعوام، مج ١، ص ٣٤٨.

(٣) البزدوى: المصدر نفسه، ص ١١.

الصحيح المعبر عن آراء أهل السنة والجماعة^(١). وينقسم كتاب أصول الدين في مجموعته إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الأول ويحتوى على مقدمة تشتمل على استعراض مختصر لعلماء الفقه المسلمين ومؤلفاتهم، ويتبع ذلك فى الجزء الثانى دراسة الأصول الدينية، ويتلوه فى الجزء الثالث تفسير للمذاهب الإسلامية وتفرعاتها، وهو كتاب علمى يشمل أسس العقيدة عند أهل السنة^(٢).

ومن أهم الأسباب التى أملت على البزدوى تأليف كتابه هذا ما ظهر من البدع والضلالات وما لمسه من عناء الجدل - الكلام - بين الناس الذين استمالتهم دراسة علوم الفقه أو القضاء، وأيضاً انتهاء عصر الجدل الكلامى والفقهى وقفل بابه بصورة رسمية بإصدار الخليفة القادر قراره الذى اتخذته ضد المعتزلة فى عام (٤٠٨هـ/١٠١٧م). هكذا كان الحال فى العصر الذى عاش فيه البزدوى، حيث كان الفقه علماً جامداً ومثقلاً بأساليب مذهبية تقليدية^(٣).

ثم أتى العمل الواقعى فانتهدت المساجلات الدينية إلى مناقشات عادية وهذا هو السبب المهم فى عودة علماء ذلك العصر إلى البحث الجدلى. وفى المقدمة جاء نص الكتاب الذى يعالج ٩٦ مسألة عن أهم القواعد الفقهية للدين الإسلامى، وقد راعى المؤلف تبويب المسائل بشكل يوحى باتصالها بعضها ببعض اتصالاً يسيراً، ويمكن تقسيم الكتاب فى مجموعته إلى تعاليم أصول عقيدية ومباحث فى علم السياسة، هذا إلى جانب موضوعات فلسفية أخرى، وتتخلل هذه الأقسام مشكلات فقهية، ويتعرض التقسيم إلى المسائل الآتية: من رقم ١ إلى رقم ١٠ " الكلام " . ومن رقم ١١ إلى رقم ٢٢ تعاليم الله

(١) على عبد الفتاح المغربى: الفرق الكلامية الإسلامية، ص ٣٤٣.

(٢) البزدوى: المصدر نفسه، ص ٥.

(٣) البزدوى: المصدر نفسه، ص ٥، ٦.

ومنها المسألة ٢٢ كتمة لعلم الصفات . ومن رقم ٢٣ إلى رقم ٢٥ الرسل .
ومن رقم ٢٦ إلى رقم ٣٠ أفعال الناس ، ومن رقم ٣١ إلى رقم ٣٦ مواضيع
متفردة ، ومن رقم ٣٧ إلى ٤٢ الإيمان .^(١) والمسألة رقم ٤٢ يورد فيها المؤلف
اختلاف الناس في الإيمان أنه مخلوق أو غير مخلوق وهذا الاختلاف بين
أهل السنة والجماعة مع اتفاقهم أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، فقال أهل
سمرقند بأجمعهم : " بخلق الإيمان وأنه مخلوق لله تعالى وجهلوا من قال إنه
غير مخلوق . . الإيمان مخلوق ظاهر ، وهو أن الإيمان عند أهل السنة
والجماعة إقرار باللسان وتصديق بالقلب ، وهما من أفعاله وجميع مخلوقه لله
تعالى فكذا هذان الفعلان^(٢) .

ويناقد البزدوى كل موضوع من هذه المسائل طبقاً لطريقة موحدة ثابتة ،
إذ يبدأ ببحثها ويذكر القاعدة الفقهية تبعا لتعاليم أهل السنة والجماعة ، ثم
يليه ما ورد بصدها من آراء المذاهب المخالفة آراء العلماء ثم نقد لها ، وكثيرا
من الحالات يلجأ البزدوى إلى المناظرة الكلامية فيدع كلا من الطرفين يدلى
بوجهة نظره ، ويطغى طابع المذهب السني على كتاب أصول الدين مع مراعاة
الاتجاهات والآراء الفقهية الأصلية ، وبذلك يضم الكتاب مختلف النظريات
الفقهية ، كما يعبر عن الإيمان بالمذهب الحنفي الماتريدي ويتعرض لكل الآراء
المتشعبة للتعاليم الدينية منذ بدء الخلاف في الآراء في الإسلام حتى العصر
الذي عاش فيه المؤلف^(٣) .

فاقت شهرة البزدوى عن طريق تلاميذه شهرته بمؤلفاته . وأشاد بعلمه
كل من كتبوا عنه أو عاصروه . وقال عمر النسفى فى كتابه القند : " وكان

(١) البزدوى : كتاب أصول الدين ، ص ٦ .

(٢) البزدوى : المصدر نفسه ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٣) البزدوى : المصدر نفسه ، ص ٧ ، ٩ .

شيخ أصحابنا بما وراء النهر، وكان إمام الأئمة على الإطلاق، والموفود إليه من الآفاق، ملاً الشرق والغرب بتصانيفه في الأصول والفروع" (١).

كما كان أبو المعين ميمون بن محمد بن محمد بن مكحول النسفى (ت ٥٠٨هـ / ١١١٤م) من أئمة علماء الكلام، نزيل سمرقند، كان من أكبر شخصيات المدرسة الماتريدية ممن ناصروا المذهب الماتريدى بقوة، وهو إمام فاضل جامع الأصول وعالم بارع، له مصنفات جلية فى علم الكلام، منها: كتاب التمهيد لقواعد التوحيد، وكتاب تبصرة الأدلة، وكتاب العمدة فى أصول الدين، وكتاب بحر الكلام. قال عمر النسفى: " هو أستاذى، كان بسمرقند مدة وسكن بخارى يغترف علماء الشرق والغرب من بحاره ويستضيئون بأنواره" (٢). كذلك يعد الشيخ القاضى الإمام أبو الحسن على بن الحسن بن على بن محمد بن عفان بن على بن الفضل بن زكريا بن عثمان بن خالد بن زيد بن كليب الماتريدى (ت ٥١١هـ / ١١١٧م) من أئمة علماء الكلام، وهو سبط شيخ الإسلام أبى منصور الماتريدى تفقه على جده لأمه، وكان بارعا فى علم الكلام (٣).

والإمام العلامة أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل النسفى السمرقندى (ت ٥٣٧هـ / ١١٤٢م) كان من كبار المتكلمين إماما فاضلا أصوليا متكلمًا صاحب فنون، ألف فى الحديث والفقه والتفسير والكلام وكان

(١) طاش كبرى زاده: طبقات الفقهاء، ص ٨٦. القرشى: الجواهر المضية، ج ٤، ص ٩٩.

(٢) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص ٧٠٦. الزركلى: الأعلام، ج ٧، ص ٣٤١. على عبد الفتاح الغربى: الفرق الكلامية الإسلامية، ص ٣٤٣. عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، مج ٣، ص ٩٤٩.

Carole Hillenbrand, Studies in Honour of Clifford Edmund Bosworth, The Sultan, s Turret, Studies in Persian and Turkish Culture, vol.2, Brill, Boston, 2000, p318.

(٣) القرشى: الجواهر المضية، ج ٢، ص ٥٥٣. النسفى: المصدر نفسه، ص ٥٥٩.

متبحرا في كل علوم عصره^(١) له كتاب العقائد النسفية في علم التوحيد، وهو بمثابة ملخص للعقيدة الماتريدية، به ٥٨ مسألة عقيدية وهو من أشهر ما وضع عن الفقه لمذهب الماتريدي^(٢). وأبو أحمد محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي (ت ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م) نزيل بخارى كان إماما فاضلا في الفتوى والمناظرة، والأصول والكلام^(٣). وأبو الفتح محمد بن عبد الحميد بن الحسن بن الحسين بن حمزة الأسمندي السمرقندي (ت ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م) كان من فحول الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة، ومن كبار فرسان الكلام، مناظرا بارعا، له الباع الطويل في علم الجدل، ومن مؤلفاته في أصول الدين، كتاب الهداية في الكلام أو أصول الاعتقاد^(٤).

كما كان أبو بكر نور الدين أحمد بن محمود الصابوني (ت ٥٨٠هـ/ ١١٨١م) من أشهر علماء الكلام البارزين ممن قاموا بنصرة الماتريدي، ووضح آراءه، وتلمذ على أبي المعين النسفي وقرأ عليه كتاب تبصرة الأدلة، وتناول في كتابه البداية في أصول الدين، العقيدة الماتريدية ودافع عن

(١) الذهبي: العبر في خبر من غير، ج٢، ص ٤٥٢. سعيد نفيسي: تاريخ نظم ونثر هـ ايران، جلد أول، ص ١٢٢. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص ١١٥. النسفي: العقائد النسفية، ص ٩. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٩٧٧.

(٢) إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني: تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، تحقيق رجاء محمود السامرائي، ج١، ١٩٩٣، ص ٤. بلقاس الغالي: أبو منصور الماتريدي، ص ٢٠.

(٣) السمعاني: التحرير في المعجم الكبير، ج٢، ص ٨٤.

(٤) الأسمندي: بذل النظر في الأصول، ٢٤، ٢٥. الأسمندي: طريقة الخلاف في الفقه بين الأئمة الأسلاف، ٢٤، ٣١. الجويني: الدرّة المضية فيما وقع فيه الخلاف بين الشافعية والحنفية، ص ٧٢. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص ٢١٠. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج٦، ص ١١٥. أبو الليث السمرقندي: خزانة الفقه، مج ١، ص ٢٧.

مذهبه بإخلاص، حينما عظم الخلاف بينه وبين الأشاعرة خاصة عندما قام فخر الدين الرازي بزيارة ما وراء النهر وانعقدت هناك مناظرات بين فرعى أهل السنة الأشاعرة والماتريدية. يقول الرازي متحدثا عن ذلك: " لما دخلت بلاد ما وراء النهر وصلت أولا إلى بلدة بخارى ثم سمرقند واتفق لى فى هذه البلاد مناظرات ومجادلات مع من كان فيها من الأفاضل، وكان هناك رجل يقال له الصابونى زعم أنه متكلم القوم" وقد وقع بينهما مناظرة حول الرؤية.

أما موضوعات المناظرات بين الرازي وبين علماء ما وراء النهر من الماتريدية فهى التكوين والبقاء والتكليف بما لا يطاق والكلام، وهى تجسيم نقاط الاختلاف بين فرعى أهل السنة^(١).

خلاصة القول كان الاحتكاك الفكرى بين أهل السنة من الأشاعرة والماتريدية فى مدن إقليم الصغد فى العصر السلجوقى أثره الجلى فى ازدياد الحركة العلمية نشاطا، إذ كان كل فريق يرى أن يتسلح أمام الخصوم بكل الوسائل ليتنصر على خصمه، فكثرت المصنفات والمؤلفات التى وضعت فى هذا العلم، مما كان له أثره الإيجابى فى ازدهار الثقافة.

علم الفلسفة

الفلسفة كلمة يونانية الأصل بمعنى إثارة الحكمة^(٢) أو محبة الحكمة^(٣) من " فيلو" بمعنى محب أو صديق و" صوفيا " بمعنى الحكمة^(٤)، والفلسفة

(١) بلقاس الغالى: أبو منصور الماتريدى، ص ٢١. على عبد الفتاح المغربى: الفرق الكلامية الإسلامية، ص ٣٤٤.

(٢) نيقوماخس الجاراسينى من شيعة فيثاغورث: كتاب المدخل إلى علم العدد، ترجمة ثابت بن قره، تحقيق ولهم كوتش اليسوعى، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص ١١.

(٣) التنوخى: نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٢.

(٤) كان المستعمل فى أول الأمر كلمة صوفيا وحدها فان صوفوس = الحكيم، قد أطلقها =

كما عرفها كبار الفلاسفة هي البحث عن الوجود من حيث هو موجود بقدر الطاقة البشرية، وبإطلاق موضوعها تدخل فيها جميع العلوم من إلهية وطبيعية ومنطقية ورياضية وغيرها^(١) والغاية من الفلسفة النظرية هي معرفة الحق في رأى أو معتقد فقط. أما الفلسفة العملية، فهي ما لا يكون حصول رأى الاعتقاد بالموجدات غاية وغرضا فقط، بل هو حجة رأى وصواب فكرة، ليطبق الإنسان عمله على تلك الفكرة وليكتسب ما هو الخير فيه. إذن الغاية من الفلسفة هو الخير الذى يرمى إليه فعل الإنسان^(٢).

كان بدء تفلسف المسلمين فى مجال العقائد الإسلامية والأحكام الشرعية، ثم انتقل المسلمون من طور التفلسف الدينى إلى طور التفلسف الخالص. ويمكننا أن نميز فى الفكر الفلسفى الإسلامى بين نوعين منه: الفكر الفلسفى فى مجال الشرعيات ويتجلى فى علوم شرعية ثلاثة هى الكلام، وأصول الفقه، والتصوف^(٣) والفكر الفلسفى الخالص الذى مهدت له حركة الترجمة^(٤).

=هوميروس فى الإلياذة على التجار البارح. ثم استعظم العقلاء أن يسموا أحدهم "صوفوس" "حكيمًا" فكانوا يسمونه "فيلوصوفوس" صديق الحكمة = فيلسوف. إلا أن هذا الاسم كان يدل أولاً على "تهذيب النفس" حتى جاء فيشاغورث (ت ٥٠٣ ق. م) فيقال إنه أول من سُمى الفلاسفة بهذا الاسم. الشهرستاني: موسوعة الملل والنحل، ص ١٥١. عمر فروخ: تاريخ الفكر العربى، بيروت، ١٩٦٢م، ص ١٩

(١) سليمان بن صالح بن عبد العزيز الغصن: موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، ج١، ص ٢٢. عبد الله نعمه: فلاسفة الشيعة، بيروت، ١٩٣٠، ص ١٧.

(٢) عبد الله نعمه: المرجع نفسه، ص ١٧.

(٣) Journal of Islamic Studies, vol.6, Herry Corbin, History of Islamic Philosophy, no.1, 1995, p106.

(٤) على اكبر فياض: تاريخ إسلام، تهران، ١٣٢٧، ص ٢٢٨.

Gibb, Arabic Literature, P35.

وبعد أن كان المسلمون يتخذون الفلسفة وسيلة للدفاع عن العقائد أصبحوا معنيين بالفلسفة لذاتها، وتعمقوا في فهم مباحثها وبلغت الفلسفة العقلية أوج ازدهارها ولكن هذا النصر المؤزر كان موقوتاً^(١)، فسرعان ما تدهورت الفلسفة في العصر السلجوقي في مدن إقليم الصغد، وذلك لأسباب متعددة منها موقف الفقهاء من دراسة العلوم الفلسفية بالإضافة إلى موقف الحكام من ذلك^(٢). فقد قوبلت الفلسفة وهي على رأس العلوم الانسانية والتطبيقية بتعصب ومقاومة شديدين؛ فكل ألوان البحث والاستدلال واللجوء للعقل لحل المعضلات الأساسية يعد في نظر علماء السنة جسارة كبيرة خارجة عن حد المؤلف، بل أكثر من ذلك إصاق تهمة الكفر والزندقة بالفلاسفة، لهذا ضاع رونق الفلسفة وسائر العلوم الانسانية والتطبيقية وقل رواجها^(٣). ومنذ القرن الخامس الهجري، حظرت تعلم العلوم الفلسفية في مدارس بلاد ما وراء النهر وخراسان وبقية الممالك الإسلامية. واقتصرت الدراسة على الأدب والعلوم الأساسية^(٤).

لما كان العلم الموروث عن النبي عليه الصلاة والسلام هو وحده في نظر أئمة الدين والفقهاء العلم النافع فقد اعتبروا علوم الأوائل علوماً مهجورة تنتهي بالكفر والتعطيل، وكان متكلمو السنة والشيعية على السواء يعادون الفلاسفة والحكماء، ويعتبرونهم أعداء للدين منكرين لوحدانية الله^(٥). ويؤكد ذلك قاسم غني بقوله: "ويمكن القول بصورة عامة أنه تنوسيت

(١) أحمد رمضان أحمد: الدولة العباسية، ص ١٦٤، ١٦٠. عادل العوا: الكلام والفلسفة،

دمشق، ١٩٦١م، ص ٧٩

(٢) مريزن سعيد مريزن: الحياة العلمية في العراق، ص ٤٧٩.

(٣) أحمد كمال الدين حلمي: عمر الخيام، ص ٦٥.

(٤) ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٢٥٠.

(٥) أحمد كمال الدين حلمي: المرجع نفسه، ص ٦٦.

الفلسفة والعلم الإبداعي والبحث الحر وتجمد كل ما كان يعد مخالفا للمذهب والسياسة^(١). حيث كان الدين والمذهب هما الغرض الأصلي والهدف الأساسى الوحيد فى القرن السادس، وحاصل العلوم الدينية هو أن الإنسان إنما خلق من أجل العبودية والعبادة، والغرض من العلم هو معرفة الله والمقصود من العمل هو نيل السعادة الأخروية، ولهذا يجب أن تكون العلوم جميعها خادمة لهذه الغايات. وكل علم وفن لا يفيد هذه العلوم بطريق مباشر أو غير مباشر مضر وباطل"^(٢).

يقول قاسم غنى: " إن العلوم الشرعية كانت موردا لحاجات العامة وضرورية لهم، فى حين أن سائر العلوم ولاسيما الفلسفة كانت تعتبر من العلوم المستظرفة والمختصة بالخواص، إذ كانت العلوم الدينية لها صلة خاصة بالشئون المعاشية والمنافع الشخصية، ذلك لأن العلوم الدينية كانت فى القرنين الخامس والسادس الهجريين أكبر العوامل لتهيئة المعاش للأفراد. أى أن الإنسان كان بإمكانه أن يصل بمعرفة العلوم الدينية إلى منصب القضاء والوعظ ويتقرب إلى الأمراء والملوك ويكون موضعاً لاحترام الخلق والحصول على رفاهية العيش، بينما كان المشتغلون بالعلوم الفلسفية والعقلية يعيشون فى الفقر والبؤس وكانت علومهم وحكمتهم سبباً لتعاستهم ونكبتهم وكانوا غالباً هدفا لاضطهاد الفقهاء لهم، يفسقونهم ويكفرونهم"^(٣).

ورغم هذه الصعاب، وجد بعض الحكماء الذين اشتغلوا بالفلسفة وكان ذلك بدافع الذوق الفطرى والكلف بالعلم فقط، ومنهم أبو اليسر محمد البزدوى قاضى سمرقند (ت ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م) درس على كبار علماء الحنفية ودرس بجانب دراساته الشفوية ما كتبه علماء الفقه السابقون، ويبدو أنه تعمق

(١) قاسم غنى: تاريخ التصوف فى الإسلام، ص ٦٦٢.

(٢) قاسم غنى: المرجع نفسه، ص ٦٧٧.

(٣) قاسم غنى: تاريخ التصوف فى الإسلام، ص ٦٧٨، ٦٧٩.

فى دراسة آراء الأشعرى والماترىدى وحصل من العلم ما يحتاى إليه المشرعون والفقهاء، واستند البزدوى إلى آيات كثيرة مما يدل على أنه كان يعىء القرآن الكرىم، ومما تجدر ملاحظته على البزدوى أنه كان كثيرا ما ىترك فى " كتابه أصول الءىن " المناقشات الفقهىة لىتعلم فى شرح التفصىلات الفلفسىة لبعض الآيات القرآنىة المآئلف على تفسىرها^(١) وىمكن تقسىم هذا الكتاب فى مآموعة إلى أسس فلفسىة وتعالىم أصول عقىءىة ومباحث فى علم السىاسة، هذا إلى آانب موضوعات فلفسىة آخرى، وتتآلل هذه الأقسام مشكلات فقهىة، وىتعرض التقسىم إلى المسائل من رقم ١ إلى رقم ١٠ الكلام وأسبابه الفلفسىة^(٢).

والسىء الإمام أبو عبء الله شرف الزمان مآمء بن ىوسف الاىلاقى نزل سمرقنء (ت ٥٣٦هـ / ١١٤١م) كان من أشهر الفلاسفة من تلامذة ابن سىنا. آآمعء فىه الفضائل العلمىة والعملىة واستوعب بشكل آىء الآراء الفلفسىة المنقولة عن ابن سىنا وطلابها، وتبنى أفكار ابن سىنا، وكان له ءور كبرى فى شرحها ونشرها، واشتهر بمآئصره على كتاب ابن سىنا " القانون " وله تصانىف كثرىة مثل كتاب اللواآق وكتاب ءوست نامه وكتاب سلطان نامه وكتاب فى إءءاء الاوافق وكتاب الآىوان، وله رتبة عالىة فى الإفاءة والأنصاف والتمىىز، ومن كلماته: أن الفلفسة علم الكل، وصناعة الصناعات، كما قال أمىر الأمراء والمتفلسف المتشبه بالمبأءى على آسب الطاقة^(٣) وآرت مناظرات بىن الاىلاقى والقاضى الفىلسوف مآمء الأفضل

(١) البزدوى: كتاب أصول الءىن، ص ١١، ١٢.

(٢) البزدوى: المصءر نفسه، ص ٦.

(٣) البىهقى: تاریخ آكماء الإسلام، آآقىق مآمء كراء على، مطبعة الترقى ءمشق، ١٩٤٦، ص ١٣١، ١٣٢. البىهقى: آئمة صوان الآكمة، لاهور، ١٩٣٢، ص ١٢٥، ١٢٦. بول غلىونى وآآرون: موسوعة العلوم الإسلامىة والعلماء المسلمىن، آء، مؤسسة المعارف، بىروت، ص ٥١. هشام نشابه: موسوعة أعلام العلماء والأءباء العرب والمسلمىن، آء، ص ٦١٧.

عبد الرزاق التركي، الذى كان حافظا لأكثر مؤلفات ابن سينا، فلم يتعرض فيها القاضى عبد الرزاق إلا لظواهر كتب ابن سينا. وقتل الايلاقى فى موقعة قطوان بسمرقند على يد الخطا الكفار سنة (٥٣٦هـ/١١٤١م)^(١).

كما كان شمس الدين محمد بن شرف الحسينى السمرقندى (ت ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م) من كبار الفلاسفة، اشتغل بالمنطق^(٢) وله كتاب "قسطاس الميزان" وهو على مقدمة ومقالتين: الأولى فى التصورات والثانية فى التصديقات. وهو صاحب الصحائف فى الكلام وشرحه أيضا وهو شرح مبسوط^(٣). والإمام فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين الرازى (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) كان من كبار علماء عصره فى العلوم الشرعية والعقلية من أهل الاستدلال والعقل بارعا فى الفلسفة والمنطق، رُحِل فى طلب العلم

(١) هشام نشابه: المرجع نفسه، ج٢، ص ٦١٧.

(٢) كلمة منطق تدل من ناحية اشتقاقها اللغوى على الكلام، فيقال فلان نطق أى تكلم، كما يقال فلان منطيق أى يجيد صناعة الكلام*. والمنطق هو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد فى حدود المعرفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات، ولم يلق علم المنطق اهتماما من قبل العلماء فى فترة البحث**. والمنطق قسمان: تصور - إدراك ساذج لا يصحبه حكم معين ثم تصديق أى اقتناع بأمر بعد ثبوته بالبرهان***.

*محمد عبد الستار نصار: السلم فى علم المنطق، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٧٤،

ص ٧،

** محمد عادل عبد العزيز: الحضارة الإسلامية، ص ٢٠٣. عمر فروخ: تاريخ الفكر العربى، ص ١٨٤.

*** عمر فروخ: المرجع نفسه، ص ١٨٤.

(٣) حاجى خليفة: كشف الظنون، مج ٢، ص ١٣٢٦. طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة، ج ١، ص ٣٠٤. أحمد شوكت الشطى: مجموعة أبحاث عن تاريخ العلوم الرياضية فى الحضارة العربية الإسلامية، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٤، ص ٥٢، ٥٣. على أكبر دهخدا: لغت نامه، مج ٢٩، ص ٦٢٥.

إلى بلاد ما وراء النهر ودخل بخارى وسمرقند وقامت بينه وبين علمائها الماتريديين مناظرات قوية، وله مصنفات كثيرة أهمها موسوعته جامع العلوم والحكم، ويتضمن السياسة وآداب الملوك كما عرض مشاكل الإمامة وحلول لهذه المشاكل. وكان يحاول إثبات آراء أرسطو والفارابي وابن سينا في كتاباته^(١).

صفوة القول تقلصت الفلسفة وكسدت سوقها في مدن الصفد خلال العصر السلجوقي، وذلك لأسباب متعددة منها موقف الفقهاء من دراسة العلوم الفلسفية بالإضافة إلى موقف الحكام، ومن ثم قوبلت الفلسفة وهي على رأس العلوم الانسانية والتطبيقية بتعصب ومقاومة شديدين؛ فكل ألوان البحث والاستدلال واللجوء للعقل لحل المعضلات الدينية يعد في نظر علماء السنة جسارة كبيرة خارجة عن حد المألوف بل أكثر من ذلك إلصاق تهمة الكفر والزندقة بالفلاسفة، لهذا ضاع رونق الفلسفة وقل رواجها، ويمكن القول بصورة عامة أنه تنوسيت الفلسفة وتجمد كل ما كان يعد مخالفا للمذهب والسياسة، حيث كان الدين والمذهب هما الغرض الأصلي والهدف الأساسى الوحيد فى القرنين الخامس والسادس الهجريين.

(١) مرتضى راوندى: تاريخ اجتماعى إيران، بخش دوم، جلد هشتم، جابخانه نوبهار، ١٣٧٤، ص ٢٣١، ٢٣٢.

Lambton, State and Government in Medieval Islam, London, 1981, pp131, 132.

ثانياً: العلوم التطبيقية

تقوم بدراسة الفلك والرياضيات والضب والصيدلة والنبات والكيمياء وغيرها.

١ - علم الفلك

الفلك في اللغة مدار النجوم واستدارة السماء، فدل بذلك على أنه علم يبحث عن النجوم ومدارها في السماء، وقد عرفوه بأنه علم يبحث حالة الكواكب وحركاتها ومواقعها ونواميسها وأسباب تغيير مظاهرها وأمكتتها^(١).

سمى علم الفلك أو علم الهيئة في العصور الوسطى بأسماء مختلفة منها أربعة أعم من الأسماء الباقية، وهي: علم النجوم، وصناعة النجوم، وعلم التنجيم، وصناعة التنجيم^(٢) مع أن هذه الألفاظ انحصر اصطلاحها في أيامنا على العلم الباطل الذي غرضه الاستدلال على الحوادث الدنيوية المستقبلية برصد حركات الكواكب ومواقع لنجوم، لكن في العصور الماضية كانت تطلق سواء على علم الهيئة أم أحكام النجوم أم هذين العلمين معا^(٣).

في الواقع كان للقرآن الكريم أثر كبير في تطور علم الفلك عند المسلمين، حيث حث على التفكير في خلق السماوات والأرض، ووردت

(١) أحمد شوكت الشطبي: مجموعة أبحاث عن تاريخ العلوم الرياضية في الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٣. عمر رضا كحالة: العلوم البحتة في العصور الوسطى، مطبعة الترقى، دمشق، ١٩٧٢، ص ١٦١.

(٢) أمين فهد المعلوف: المعجم الفلكي، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٣٥، ص ٢٧. حميد موراني وعبد الحلیم متصّر: قراءات في تاريخ العلوم عند العرب، مؤسسة دار الكتب، الموصل، ١٩٧٤، ص ٩٩. كرلونيلى: علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، ج ١، روما العظمى، ١٩١١، ص ١٨.

(٣) على إبراهيم عبندة: الفلك والأنواء في التراث، ١٩٩٨، ص ٢٠٤. كرلونيلى: المرجع نفسه، ص ١٨.

آيات قرآنية كثيرة تدل على قدرة الله وإبداعه في خلق السماوات والأرض، منها: "ان في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الأبواب" (١) وقوله عز وجل: "أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" (٢). كما وردت آيات عديدة حول الظواهر الفلكية منها: "والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون" (٣). و"الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم تفلحون" (٤) "وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" (٥) حقا كانت الأجرام السماوية آيات مبصرة تشير إلى عظمة خالقها وقدرته.

كان لارتباط بعض أحكام الدين الإسلامي بالظواهر الفلكية دور كبير في اهتمام المسلمين بأمر الفلك اهتماما كبيرا. فكانت متطلبات الدين الإسلامي ذات ضرورة لرصد دائم لقبة السماء الزرقاء، لأن الشريعة وضعت قوانين ثابتة بفروض العبادة، لذلك كان للمسلمين حاجة ماسة إلى علم النجوم لتعيين أوقات الصلاة، فكان يتطلب من المسلم الذي يريد إقامة الصلاة الاتجاه إلى القبلة في الكعبة؛ وذلك يقتضى معرفة سمت القبلة. ولأن زمن

(١) آل عمران: آية ١٩٠

(٢) الأنبياء: آية ٣٠.

(٣) يس: الآيات ٣٨-٤٠.

(٤) الرعد: آية ٢.

(٥) النحل: آية ١٢

الصلاة يختلف حسب الموقع الجغرافي، وحركة سير الشمس في دائرة البروج، وكذلك صلاتا الكسوف والخسوف اللتين تتطلب معرفتهما استعمال الجداول الفلكية الأزياج، وكذلك معرفة أحوال الشفق وهلال رمضان شهر الصوم، وإثبات موعدى العيدين الفطر والأضحى، لذلك كله كان لعلم النجوم لدى المسلم معنى ديني عميق^(١).

فالنجوم ومجموعاتها وأفلاكها وأبعادها والشمس وحركتها والقمر وأطواره ومنازله والسماء وما حوت وتعاقب الليل والنهار والشروق والغروب، كل ذلك يرى فيه المؤمن الخاشع دلائل صدق وشواهد حق على وجود الخالق وقدرته العظيمة^(٢). فلا جدال أن علماء مدن الصغد بعد أن استوعبوا المعارف القديمة لأسلافهم من علماء الأمم السابقة استهوتهم الحقيقة بذاتها عن طريق البحث العلمي والأرصاء، فبدأوا فصلا جديدا في تاريخ علم النجوم فأبدعوا فيه^(٣).

بذل علماء الفلك المسلمون في سمرقند جهودا كثيرة، واستخدموا

(٣) حميد موراني وعبد الخليم منتصر: قراءات في تاريخ العلوم عند العرب، ص ١٠٣. عباس العزاوي: تاريخ علم الفلك في العراق وعلاقاته بالأقطار الإسلامية والعربية في العهود التالية لأيام العباسيين، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٨، ص ١٧. غادة حجازي قدومي ومحمد عيسى: العلوم عند العرب والمسلمين، مقتنيات دار الآثار الإسلامية، الكويت، ١٩٨٤، ص ١٠. عبود قرة: الإبداع العربي في علم الفلك، مجلة التراث العربي، العدد ٩٠، ٢٠٠٣، ص ١٦٩.

(٤) عبود قرة: المقال نفسه، ص ١٦٩.

(٥) وقد صار جاريا على ألسنة الناس القول بأن العلوم ثلاثة، الفقه للأديان، والطب للأبدان، والفلك للأزمان. على إبراهيم عبنده: الفلك والأنواء في التراث، ص ١٨١. عبود قرة: المقال نفسه، ص ١٦٩.

المراسد^(١) والآلات الفلكية، كالأزياج^(٢) والاسطرلابات^(٣) وغيرها، وجهزت تلك المراصد بأدوات عديدة منها: مقياس الارتفاع والإسطرلاب والمزولة^(٤). ومن أشهر علماء الفلك القدامى فى سمرقند أبو حامد أحمد الصاغاني (٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) كان يتقن عمل الاسطرلاب والآلات الرصدية الأخرى، وصنف رسالة فى عمل الاسطرلاب وقوانين الهيئة^(٥).

(١) المرصد: هى مواضع المراقبة مركز على الحدود لمراقبة المرور واستيفاء الرسوم - واصطلاحا بناء علمى تطبيقى مجهز بأدوات خاصة لدرس مسار النجوم والشمس والقمر ومراقبة الخسوف والكسوف وحساب عدد أيام السنة وتنظيم الجداول الفلكية. عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، ص ٣٧٣.

(٢) الأزياج: هى جداول فلكية مبنية على قوانين رياضية تبين حركة كل كوكب، ويعرف منها مواقع الكواكب فى أفلاكها، ومنها أيضا تعرف تواريخ الشهور والأيام والتقويم المختلفة*. ويعرفه كرونليو فيقول كلمة أصلها من اللغة البهلوية، ومعناه السدى الذى ينسج فيه لحمة النسيج ثم أطلق الفرس هذا الاسم على الجداول العديدة لمشابهة خطوطها الرأسية بخيوط السدى**.

* أحمد شوكت الشطى: مجموعة أبحاث عن تاريخ العلوم الرياضية فى الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٨. على عبد الدفاع: نوابغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٤٤.

** كرونليو: علم الفلك تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى، ج١، ص ٤٢. على فهمى شتا: العلم الإسلامى، مجلة الدارة، العددان ٣، ٤، ١٩٧٦، ص ٢٢٩.

(٣) الاسطرلاب: هو مقياس النجوم وهو كلمة يونانية الأصل " اسطرلابون" من اصطر هو النجم ولابون هو المرأة. وفى المعجم الفلكى: الاسطرلاب ذات الصفائح، آلة اخترعها هبارديوس تقاس بها دوائر الكرة. البيهقى: تاريخ حكماء الإسلام، ص ٩١. غادة حجازى قديمى ومحمد عيسى: العلوم عند العرب والمسلمين، ص ١٣.

(٤) رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف محمد العربى شنتقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٩٥.

(٥) مريزن سعيد مريزن: الحياة العلمية فى العراق، ص ٧٥. ناجى معروف: المرصد الفلكية ببغداد فى العصر العباسى، بغداد، ١٩٦٧، ص ١٣.

كان في قصور الملوك والسلاطين والأمراء طوال القرون القديمة والوسطى فلكيون عديدون لا يقومون في أغلب الأحيان إلا بالقليل من الرصد الفلكي، أما عملهم الحقيقي فينحصر في التنجيم^(١) فكان في عسكر السلطان محمد خوارزمشاه رجل تركي يعمل بالحجارة فينزل المطر في أي وقت شاء السلطان " وسأل التركي أهذه الأحجار معدنيا؟ قال: كلها حيوانى، تخرج من كروش بعض الخيول والبقر والديوك"^(٢).

أما كتاب جهار مقاله لنظامى عروضى السمرقندى فيشتمل على أربع مقالات في بيان الشروط الواجب توافرها في أربع طبقات لا يستغنى الملوك عن خدماتهم وهم: الكتاب، والشعراء، والمنجمين، والأطباء. ويقول لا يمكن أن تنجح أعمال الملك إلا إذا درست وحسبت فصول السنة من قبل المنجمين. وخص كل فئة بمقالة من المقالات المشار إليها، وتحدث في بداية كل منها عن ماهية الفن والشروط الواجب توافرها فيمن يمارس هذا الفن^(٣).

يعد نظامى عروضى السمرقندى من كبار علماء الفلك، ويحكى في المقالة العاشرة من مقالته الخاصة بالتنجيم فيقول: إنه في سنة (٥٤٧هـ/١١٥٢م) وقعت الحرب بين السلطان سنجر ومولاي السلطان علاء الدنيا والدين، وهزم جيش الغور وأسر مولاي سلطان المشرق، كما وقع ابن مولاي شمس الدولة والدين محمد بن مسعود أسيرا في يد أمير السلطان سنجر، فاتفق على دفع خمسين ألف دينار فدية وعلى أن يذهب رسوله إلى

(١) بول غليونجى وآخرون: موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، ج١، ص ٢٥.

(٢) البيهقى: معدن النوادر في معرفة الجواهر، تحقيق محمد عيسى صالحية، دار العروبة، الكويت، ١٩٨٥، ص ١١٨، ١١٧.

(٣) براون: الطب العربى، ترجمة داود سليمان على، مطبعة العانى، بغداد، ١٩٦٤، ص ٧٩.

القصر ليستعجل هذا المال، فإذا بلغ هراة أفرج عن الأمير، لأنه كان مطلق السراح من قبل السلطان سنجر، وأمر بخلعه عند مغادرته هراة.

يقول نظامى عروضى: "قد قدمت فى هذه الحال لأكون فى خدمته، وقد بلغ منه الحزن يوما فسألنى متى الخلاص ومتى تصل هذه الرسالة فأخذت الارتفاع بهذا الاختيار، وأصعدت الطالع فى ذلك اليوم، بأذلا كل جهد؛ وقد بدأ مفتاح الفرج لهذه الشدة فى اليوم الثالث فجئت إليه فى اليوم التالى وقلت: غدا عند صلاة الظهر يأتى الرسول. وبالفعل فى آذان الظهر أحضر الفداء وفى اليوم التالى لبس الأمير شمس الدولة والدين خلعة السلطان سنجر وأصبح طليقا فحث السير إلى بلده، وعطف على النظامى وأعطاه الذهب الكثير^(١) وينسب إلى نظامى عروضى السمرقندى كتاب صدياب - مائة موضوع - كما ينسب إليه رسالة فى الاسطراب^(٢).

كما يجدر الإشارة إليه أن نظامى عرضى سمرقندى كان من تلاميذ عمر الخيام^(٣) وكان يكثر من ذكره فى المقالة الخاصة بعلم النجوم والمنجمين^(٤). مما يؤكد الصلة الوثيقة بينهما وتأثره به فى هذا الفن، وكان الخاقان شمس الملك يعظم عمر الخيام ويجلسه معه على سريره^(٥).

كما يعد الحكيم الحسين السمرقندى من كبار علماء الفلك فى القرن (١٢هـ/١٢م) وهو أحد تلاميذ الحكيم أبى الفتح عبد الرحمن الخازن الذى

(١) النظامى العروضى السمرقندى: جهاز مقاله، ص ٧٢، ٧٣.

(٢) العروضى السمرقندى: المصدر نفسه، ص ١٥١.

(٣) Mousavi with Hillenbrand, Mausoleums of Poets and Mystics, vol.2, London, 2001, p195.

(٤) زهير حميدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية فى العلوم الأساسية والتطبيقية، مج ٢، دمشق، ١٩٩٥، ص ١٥٧.

(٥) أحمد حامد الصراف: عمر الخيام، مطبعة دار السلام، بغداد، ١٩٣١، ص ٨٩.

صنف زيجاً فلكياً سماه المعبر السنجرى نسبة إلى السلطان سنجر^(١) وله مؤلفات في قواعد النور وآلات الرصد، وأوضح مقدار انكسار النور بمروره في الكرة الهوائية، وألف كتاباً في الفجر والشفق، وكتاب ميزان الحكمة من أهم كتب العلوم الطبيعية في البحث في كثافة الهواء^(٢).

وكان شمس الدين محمد بن أشرف الحسيني السمرقندي (ت ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م) من كبار علماء الفلك والرياضيات والمنطق، ومن تصانيفه كتاب الصحائف الإلهية، وكتاب الفسطاط، وكتاب في آداب البحث^(٣)، ويعد هذا الكتاب من أشهر كتب المؤلف ويشتمل على ثلاثة فصول: الأول في التعريفات. والثاني في ترتيب البحث، والثالث في المسائل التي اخترعها^(٤). فضلاً عن أبي حامد ركن الدين العميدى السمرقندي (ت ٦١٥هـ/ ١٢١٨م) كان من كبار المهتمين بعلم الفلك، له مصنفات قيمة منها رسالة في الأعمال السحرية^(٥).

(١) البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق محمد كرد علي، مطبعة الترقى، دمشق،

١٩٤٦، ص ١٦٢، ١٦١.

(٢) حكمت نجيب عبد الرحمن: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، الموصل، ١٩٧٧م،

ص ٢٢٥. محمد عريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية في العلوم

الطبيعية والطب، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٢٠٢.

(٣) ابن الجوزى: أعمار الأعيان، ص ٢٠. شمس الدين السمرقندي: أشكال التأسيس، شرح

قاضي زاده الرومى، تحقيق محمد سويسى، تونس، ١٩٨٤، ص ١٧. عمر رضا كحالة:

معجم المؤلفين، مج ٣، ص ١٣٦.

(٤) قدرى حافظ طوقان: تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك، ط ٣، دار

القلم، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٤٢٨.

(٥) عبد الله رازى: تاريخ كامل إيران، ص ٢٢٥.

٢- الرياضيات

عرف العرب العلم الرياضى بأنه علم غرضه إدراك المقادير، وأطلقوه على الحساب^(١) والجبر والمقابلة^(٢) والمثلثات^(٣) والهندسة^(٤). ولعلم

(١) علم الحساب: هو علم لقوانين استخراج مجهولات عديدة من معلومات مخصوصة، فموضوعه الأعداد، واشتقوا اسمه من كلمة الحساب المصدرية، ومعناها العدد. وقسم العرب العدد إلى مفرد ومركب* كان علم الحساب من مستلزمات علم الفرائض، فالشريعة إذن تقتضى بتعلمه، والحسابات التى يفترضها ممارسة هذا الفرع من فروع التشريع، تجعل الحساب علما مساعدا للخبراء فى التورث، وفى استخراج نصيب الخراج**

* الكاشى: مفتاح الحساب، ص٤٥، ٤٤. الكرجى: الكافى فى الحساب، تحقيق سامى شلتوت، حلب، ١٩٨٦، ص٣٨. كمال الدين الفارسى: أساس القواعد فى أصول الفوائد، تحقيق مصطفى موالدى، القاهرة، ١٩٩٤، ص٦٨، ٧٠.

** البيرونى: استخراج الأوتار فى الدائرة، ص١٣.

(٢) الجبر والمقابلة: العلم باستخراج المقادير المجهولة من خواص الأعداد المتناسبة المتوالية من الواحد بالتركيب دون التحليل. الكاشى: المصدر نفسه، ص١٨٩. كمال الدين الفارسى: أساس القواعد فى أصول الفوائد، ص٤٥. أحمد فهمى أبو الخير: علوم العرب الرياضية وانتقالها إلى اوربا، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٣٠، ص٢٧. عمر فروخ: تاريخ الفكر العربى، ص١٨٥.

(٣) حساب المثلثات: هو نوع من فروع الرياضيات الذى له صلة وثيقة بعلم الجبر، وهو علم الزوايا وعلاقاتها فى الأبعاد، والفكرة الأساسية فى علم حساب المثلثات هى قياس المساحات الكبيرة والمسافات الطويلة بطريقة غير مباشرة، وكلمة حساب مثلثات فى جميع اللغات تعنى قياس الارتفاعات. على عبد الله الدفاع: نوايغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات، ص٤٦.

(٤) الهندسة: فرع من فروع الرياضيات التى تتعامل مع النقطة والخط والسطح والفضاء، وباختصار هو العلم الذى يؤدى إلى دراسة الأشكال من حيث الحجم والمساحة. وقسم علماء المسلمين الهندسة إلى قسمين: هندسة عقلية وهى التى تعرف وتفهم أو التى =

الرياضيات أصل عريق في تاريخ الإنسانية، حيث إن الإنسان يحتاج إلى العمليات الحسابية، وإلى المقاييس في حياته اليومية، مما دعاه إلى تطوير علمي الحساب والهندسة، اللذين نشأ قرينين، كل منهما تكملة للآخر، كما كانت الهندسة المعمارية من أبرز ظواهر الحضارة الإنسانية^(١).

طبق المسلمون علم الحساب في تجارتهم اليومية، وعلم الجبر في علم الميراث المعروف بعلم الفرائض^(٢) ولم يجعلهم ذلك يقفون عند حده، بل دفعهم إلى البحث عن معرفة أوقات الصلاة التي تختلف حسب المواقع، ومن يوم إلى آخر، ومن المعروف أن حسابها يحتاج إلى معرفة عرض الموقع الجغرافي، وحركة الشمس في البروج وأحوال الشفق الأساسية ودفعتهم رغبتهم في معرفة سمت القبلة وهلال شهر رمضان، إلى اختراع حسابات وطرق متناهية الدقة^(٣). ويعتبر شرف الدين حسين بن حسن السمرقندي (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م) من كبار رواد هذا العلم، فكان من أشهر الرياضيين في عصره، له مصنفات هامة منها رسالة في طريق المسائل العددية^(٤).

اهتم علماء المسلمين بالهندسة اهتماما كبيرا، والخطوة الأولى التي اتخذها علماء المسلمين هي ترجمة كتاب إقليدس^(٥) في علم الهندسة الذي

=تسمى الهندسة النظرية. والهندسة الحسية وهي التي ترى بالعين وتدرک باللمس، أى الهندسة التطبيقية. على عبد الله الدفاع: المرجع نفسه، ص ٥٦. ٥٢. عمر فروخ: المرجع نفسه، ص ١٨٥.

(١) على عبد الله الدفاع: المرجع نفسه، ص ٥١.

(٢) البيروني: المصدر نفسه، ص ١٣.

(٣) على عبد الله الدفاع: المرجع نفسه، ص ٤٣.

(٤) اقا بزرك الطهراني: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج ٢٠، ص ٣٥٧. زهير حميدان:

أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، مج ٣، ص ٢١٣

(٥) إقليدس صوري الأصل اسكندراني المقر، كان أشهر رياضى العالم، وأعمقهم أثرا وقد

استدعاه أول بطليموس حكم مصر (٣٢٣-٢٨٥ ق.م) لتأسيس مدرسة الرياضيات في =

يسمى بالعربية كتاب الأصول الهندسية أو الأركان الهندسية، ويحتوى كتاب إقليدس على خمس عشرة مقالة: منها أربع مقالات فى السطوح الهندسية، ومقالة فى المقادير المتناسبة، وأخرى فى نسب السطوح بعضها إلى بعض، وثلاث مقالات فى العدد والتمثيل الهندسى، ومقالة فى المنطق، وخمس مقالات فى المجسمات^(١).

وأعقبت فترة الترجمة والبداية فى القرن (٣هـ/٩م) مرحلة إبداع من القرن (٤-٩هـ/١٠-١٥م) جرى خلالها تدريجياً شرح الأعمال المترجمة ومناقشتها وتصويبها، فعلى الرغم من أن أساتذة أمثال إقليدس نال احتراماً يبلغ حد التوقير والتبجيل، فإن العلماء فى سمرقند لم يتهيبوا أن يفندوا نتائجه، بل ويصوبوها فى بعض الحالات. كذلك قدم هؤلاء العلماء إسهامات فذة فى مجال الهندسة النظرية^(٢).

تنسب أعظم هذه الأعمال أهمية إلى شمس الدين أشرف الحسينى السمرقندى (ت ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م) من كبار رياضى ومهندسى بلاد ما وراء النهر، وهو صاحب كتاب أشكال التأسيس فى الهندسة^(٣) وهى خمسة

=الإسكندرية، وشهرة إقليدس تقوم على كتاب واحد هو الاسطقات الذى سماه العرب كتاب الأصول. شمس الدين السمرقندى: أشكال التأسيس، ص ١٣. أبو القاسم صاعد الأندلسى: طبقات الأمم، ص ٣٦. على بن أحمد النسوى: هندسة إقليدس فى أيد عربية (كتاب الأصول لإقليدس)، دار البشير، عمان، ١٩٩١، ص ١٤، ١٥. زيفريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقى، ط ٨، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٠٨.

(١) على عبد الله الدفاع: نوابغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات، ص ٥٣.

(٢) دونالد هيل: العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية، ص ٤٦.

(٣) ابن الجوزى: أعمار الأعيان، ص ٢٠. إسماعيل باشا البغدادى: هدية العارفين، ج ٢،

ص ١٠٦. عمر رضا كحاله: معجم المؤلفين، مج ٣، ص ١٣٦. قدرى حافظ طوقان:

تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك، ص ٤٢٨.

وثلاثون شكلا من كتاب اقليدس أوله " الحمد لله رب العالمين وبعد فإن جماعة من الفضلاء وطائفة من الأصدقاء التمسوا منى رسالة تكون مقدمة وآلة فى اقتناء براهين العلوم الحسابية، كالأعمال الجبرية والأعمال الحسابية، وذلك مؤسس على أشكال التأسيس من كتاب اقليدس ". تناولته كتب كثيرة بالشرح منها " تحفة الرئيس فى شرح أشكال التأسيس " ويقول السمرقندى عن كتاب اقليدس: " أشكال شريفة يبنى عليها براهين الهندسيات وتنشئ إليها مسائل الرياضيات، على أنها رائضة لقوى العقل، وقد بينها اقليدس بمقدمات بعضها غير محتاج إليها، وبعضها أخفى من الدعوة "(١).

يتناول السمرقندى فى كتابه أشكال التأسيس، الخمسة الأخيرة من كتاب الأصول لاقليدس(٢) خاصة بسطوح الأعداد، والأولى من أول الكتاب. ويمهد لكل ذلك بمقدمة مطولة يبرر بها إقدامه على التحرير فى هذا الموضوع، ويقدم فى مقدمات اقليدس ومن قلده فيها، كما يطعن " فيمن سماهم السادة من مخالفه ". وهذه المسائل الرياضية قد بينها اقليدس بمقدمات بعضها غير محتاج إليها وبعضها أخفى من الدعوى واستعمل بعض من تبعه طرفا من الحركات التى هى الطبيعيات. فطعن المتأخرون فى هذا البيان ورغب عنه المحققون لأن بيان مسائل علم بطريقة علم آخر غير مستحسن عند المحققين. ويبدو أن قاضى زاده لا يجارى السمرقندى فى قساوته، ويلاحظ أن اقليدس نفسه لم يكن واثقا من وضوح مصادرتة، ولذا جعلها من الأصول الموضوعية دون العلوم المتعارفة(٣).

(١) شمس الدين السمرقندى: أشكال التأسيس، ص ١٧، ١٨.

(٢) حاجى خليفة: كشف الظنون، مج ١، ص ١٠٥. حكمت نجيب عبد الرحمن: دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص ١٦٣. قدرى حافظ طوقان: تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك، ص ٤٢٨.

(٣) شمس الدين السمرقندى: المصدر نفسه، ص ٢٣، ٢٥.

ولم يكتف السمرقندى بأنه نقل فى كتابه خمسة وثلاثين شكلا من كتاب الأصول لاقليدس، بل تصرف فى المادة المنقولة بترتيبها ترتيبا مختلفا عن ترتيب اقليدس، ويبرازه لقضايا هامة فى الهندسة، وبالبراهين التى قدمها عنها فشرح أشكال التأسيس. ويبدو كتابا تضافرت فى إكمال مادته وأحكام صورته جهود علماء اختلفت عصورهم وبلدانهم واتفقوا فى تقديرهم للهندسة وفى اعتبار منزلتها بين العلوم، فإن كان لاقليدس فضل السبق إلى الأصول، فاللسمرقندى مزىة الإحياء والتهديب فى الأطوار المختلفة التى مرت بها الحضارة الإسلامية^(١).

قام بشرح كتاب أشكال التأسيس موسى بن محمد بن محمود الرومى المعروف باسم قاضى زاده عالم بالرياضيات والفلك والحكمة (ت ٩٣١هـ / ١٥٢٤م)^(٢) وهو شرح مزوج لطيف وعليه تعليقات، منه حاشية تلميذه أبى الفتح محمد بن سعيد الحسينى المدعو بتاج الدين السعيدى وحاشية أخرى لفصيح الدين محمد، علقها للأمير على شير الوزير وعلى أوائله تعليق لقاضى زاده أيضا^(٣).

كما كان أبو منصور محمد بن سليمان بن قتلмыш بن تركانشاه السمرقندى الأصل البغدادى (ت ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) من كبار العلماء، تجمعت فيه أشتات الفضائل، أخذ من كل فن من العلم بنصيب وافر، وكان له اليد الباسطة فى حل اقليدس وعلم الهندسة^(٤).

(١) شمس الدين السمرقندى: المصدر نفسه، ص ٥، ٦.

(٢) حاجى خليفة: كشف الظنون، مج ١، ص ١٠٥. شمس الدين السمرقندى: أشكال التأسيس، ص ١٩.

(٣) حكمت نجيب عبد الرحمن: دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص ١٦٣. قندى حافظ طوقان: تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك، ص ٤٢٨.

(٤) ابن الدمياطى: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، ج ١، ص ١٤، ١٥. السيوطى: بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، ج ١، ص ١١٥. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٠٢. المنذرى: التكملة لوفيات النقلة، مج ٣، ص ٩٨.

هكذا أدى علم الرياضيات دورا كبيرا في خدمة العلوم لذا يطلق عليه علم العلوم، ولم يستغن الإنسان منذ القدم عن المعارف الرياضية لصلتها بحياته الدينية والاقتصادية.

٣ - علم الطب^(١)

الطب صناعة تحفظ الصحة في بدن الإنسان حاصلة وتستردها زابلة، وبها يزدان الجسم بطول الشعر وشفاء البشرة وطيب الرائحة والنشاط^(٢) ويقول ابن أبي أصيبعة: "كانت صناعة الطب من أشرف الصنائع وأريح البضائع. حتى جعل علم الأبدان قريبا لعلم الأديان. والصناعة الطيبة حافظة للصحة الموجودة واردة للصحة المفقودة، فوجب إذ كانت صناعة الطب من الشرف بهذا المكان، وعموم الحاجة إليه في كل وقت وزمان أن يكون الاعتناء بها أشد، والرغبة في تحصيل قوانينها الكلية والجزئية أكد وأجد"^(٣).

مارس الأطباء مهنة الطب في البيمارستانات^(٤)، وهي إحدى المنشآت

(١) الطب الحذق والمهارة، والطبابة لغة العلاج والطبابة حرفه الطبيب، وطابه أى داواه وعالجه، وكلمة طب فى أبسط معانيها تعنى فن معالجة المرضى والمتألمين والمصابين. عامر

النجار: فى تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية، ص ٧.

(٢) نظامى عروضى سمرقندى: جهاز مقاله، ص ٧٤.

(٣) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ج ١، دار الثقافة، بيروت، ص ٧.

(٤) البيمارستانات: كلمة فارسية مركبة من: "بى" بمعنى بدون، و"مار" بمعنى: مريض أو عليل، و"ستان" بمعنى: مكان أو دار، أى المكان الذى يذهب المرض، ثم اختصرت مارستان. وكانت البيمارستانات من أول عهدنا إلى زمن طويل مستشفيات عامة، تعالج فيها الأمراض والعلل من باطنية وجراحية، إلى أن أصابها الكوارث ودار بها الزمن وحل بها البوار وهجرها المرضى فأقفرت إلا من المجانين حيث لا مكان لهم سواها، فصارت كلمة مارستان مأوى المجانين. ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٧٨. أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات فى الإسلام، دمشق، ١٣٥٧، ص ٤. عبد الله بن العباس الجرارى: تقدم العرب فى العلوم والصناعات، دار=

والعمائر التي يشيدها الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء أهل الخير على العموم صدقة وحسبة وخدمة للإنسانية وتخليدا لذكراهم. ولم تكن مهمة اليمارستانات قاصرة على مداواة المرضى، بل كانت في نفس الوقت معاهد علمية ومدارس لتعليم الطب، يتخرج منها المتطبيون^(١).

كانت اليمارستانات نوعين: ثابت ومحمول. فالثابت ما كان ثابتا في موضع خاص لا ينتقل منها وهي على نوعين عامة وخاصة. واليمارستانات العامة: كان لكل مدينة كبرى يمارستان واحد على الأقل للعناية بالمرضى، وهي مؤسسة حكومية يشيدها ويقوم بنفقاتها أحد الخلفاء أو أحد الحكام^(٢). ومنها تلك المستشفى التي أنشأها إبراهيم طمغاج خان (٤٤٤ - ٤٦٠هـ/ ١٠٥٢ - ١٠٦٧م) في سمرقند^(٣).

أما اليمارستانات المحمولة أو المتنقلة فهي التي تنقل من مكان إلى مكان بحسب ظروف الأمراض والأوبئة وانتشارها وكذلك الحروب، وهو عبارة عن مستشفى مجهز بجميع ما يلزم للمرضى والمداواة من أدوات وأدوية وأطعمة وأشربة وملابس وأطباق وصيادلة وكل ما يعين على ترفيه الحال على المرضى والعجزة والمزمنين والمسجونين، ينقل من بلد إلى أخرى من البلدان الخالية من يمارستانات ثابتة أو يظهر فيها وباء أو مرض معد^(٤).

=الفكر العربي، ١٩٦١، ص ٧٢. بول غليونجي وآخرون: موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، ج١، ص ٢٢.

(١) أحمد عيسى: المرجع نفسه، ص ٣. شوكت الشطى: موجز تاريخ الطب عند العرب، دمشق، ١٩٥٩، ص ٩، ١٠.

(٢) شوكت الشطى: المرجع نفسه، ص ١٠.

(٤) Davidovich, The Karakhanids History of civilization of central Asia, vol.4, p130.

Svat Soucek, A History of Inner Asia, p85.

(٣) أحمد عيسى: المرجع نفسه، ص ١١. شوكت الشطى: المرجع نفسه، ص ٤٨. عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد: المستشفيات الإسلامية، دار الضياء، عمان، ١٩٨٧، ص ٩٠. ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، ص ٣٤٦.

فضلا عن ذلك كانت الليمارستانات منقسمة إلى قسمين منفصلين أحدهما عن الآخر، قسم للرجال وقسم للنساء، وكل قسم مجهز بما يحتاجه من آلة وعدة وخدم وفراشين من الرجال والنساء وقوام ومشرفين، وفي كل قسم من هذين القسمين عدة قاعات لمختلف الأمراض، فقاعة للأمراض الباطنية، وقاعة للجراحة، وقاعة للكحالة^(١).

كان لليمارستان رئيس يسمى ساعور- متفقد المرضى - ولكل قسم من أقسامه رئيس^(٢). وللليمارستان صيدلية تسمى شرابخانه لها رئيس يسمى شيخ صيدلى اليمارستان. كما كان لليمارستان ناظر يشرف على إدارته وأحواله^(٣)، وكان لهذه اليمارستانات أوقاف كثيرة تكفى للقيام بحاجاتها من غذاء وكساء وأدوية وأجور للأطباء والمرضيين والخدم والوقود والمياه^(٤)، وكان يتولى هذه الأوقاف ناظر الوقف، الذى يلى ناظر اليمارستان فى المرتبة، ووظيفته هى إدارة الأموال والأوقاف المخصصة ليمارستان وكانت النظارة من وظائف الدولة السامية^(٥).

(١) عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد: المستشفيات الإسلامية، ص ٧١. ماهر عبد القادر محمد: دراسات وشخصيات فى تاريخ الطب العربى، دار المعرفة، الإسكندرية، ١٩٩١، ص ٣٠١. محمد كامل حسين وآخرون: الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ج١، ليبيا، ص ٢٢٨.

(٢) حكمت نجيب عبد الرحمن: دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص ٧٥. عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد: المرجع نفسه، ص ٧١. ماهر عبد القادر محمد: المرجع نفسه، ص ٣٠٢. محمد كامل حسين وآخرون: المرجع نفسه، ج١، ص ٢٢٨.

(٣) حكمت نجيب عبد الرحمن: المرجع نفسه، ص ٧٥. عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد: المرجع نفسه، ص ٥٢.

(٤) ناجى معروف: أصالة الحضارة العربية، ص ٣٤٩.

(٥) محمد كامل حسين وآخرون: المرجع نفسه، ج١، ص ٢٢٨. عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد: المرجع نفسه، ص ١٦٨، ١٦٩.

كما كان فى الـبـمارستان طرـيقان للـعلاج، علاج خارجى أى أن المـريض يتناول الدواء من الـبـمارستان ثم ينصرف ليتعاطاه فى منزله. وعلاج داخلـى يقيم المـريض فى الـبـمارستان فى القسم الخاص والقاعة الخاصة بمرضه^(١).

أما عن طريقة التدريس فى الـبـمارستانات فكانت على منهجين منهج نظرى يطبق فى المدارس الطبية ويشمل دراسة الأمراض وكيفية علاجها. ومنهج عملى يشمل التدريب والتمرين على كيفية التطيب والمعالجة يجتمع بموجبه الطلاب حول رئيس الأطباء ليشاهدوا أطراف الفحص ووصف العلاج^(٢) وإذا قضى الأطباء مدة الإجازة تقدموا للامتحان، ثم أقسموا اليمين، ونالوا الشهادة، ومن بعد ذلك يحق لهم ممارسة الطب تحت رقابة الدولة، وكان الطب يخضع إلى ما يشبه نظام الاختصاص على أيامنا^(٣).

أما المحتسب فكان يمثل الدولة فيراقب مراقبة مشددة ودقيقة أحوال المرضى وما يشتكون منه، وما يحتاجون إليه من طعام وأدوية وغير ذلك، وكان للمحتسب أعوان يساعدونه لمراقبة المصالح العامة^(٤). ولا شك أن الـبـمارستان بهذا الترتيب كان يؤدي وظيفته الطبيعية من حيث التشخيص، وتحديد المرض ووصف العلاج^(٥).

(١) أحمد عيسى: تاريخ الـبـمارستانات فى الإسلام، ص ٣١. محمد كامل حسين وآخرون: المرجع نفسه، ج ١، ص ٢٣٠.

(٢) إبراهيم بن مراد: بحوث فى تاريخ الطب والصيدلة، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٩١، ص ٢٤١، ٢٤٢. حكمت نجيب عبد الرحمن: دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص ٤٣.

(٣) أحمد رمضان أحمد: حضارة الدولة العباسية، ص ١٤٥. حكمت نجيب عبد الرحمن: المرجع نفسه، ص ٤٣. ول ديورانت: قصة الحضارة، معج ٤، ج ٢، ص ١٩٠.

(٤) عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد: المستشفيات الإسلامية، ص ١٦٦.

(٥) ماهر عبد القادر محمد: دراسات وشخصيات فى تاريخ الطب العربى، ص ٣٠٢.

ومن أشهر الأطباء في سمرقند أبو عبد الله شرف الزمان محمد بن يوسف الأيلاقي (ت ٥٣٦هـ / ١١٤١م) كان من تلاميذ ابن سينا وعمر الخيام، نزيل سمرقند قتل بمعركة قطوان بسمرقند، من مؤلفاته كتاب الفصول الإيلاقية في الطب. وهو كتاب قيم مليء بالشروح العديدة لكتاب القانون لابن سينا^(١). وبدر الدين محمد بن بهرام بن محمد القلانسي السمرقندي (٥٩٠هـ / ١١٩٤م) كان مجيدا في صناعة الطب، وله عناية بالنظر في معالجات الأمراض ومداواتها^(٢).

كما كان أبو المحامد نجيب الدين محمد بن علي بن عمر السمرقندي (ت ٦١٩هـ / ١٢٢٢م) من كبار علماء الطب البارعين في عصره، لكن مما يؤسف له أنه قتل في جملة الناس الذين قتلوا بمدينة هراة لما دخلها التتار^(٣) وكان معاصرا لفخر الدين الرازي بن الخطيب^(٤) ولنجيب الدين السمرقندي كتب وتصانيف مشهورة منها كتاب أغذية المرضى، قسمه على حسب ما

(١) ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٣١٤. الزركلي: الأعلام، ج ٧،

ص ١٤٩. الزركلي: ترتيب الأعلام على الأعوام، مج ١، ص ٣٦٣. محمد محمود

إدریس: السلطان سنجر السلجوقي، ص ١٣٨.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ٣، ص ٤٧. العطار الهاروني:

منهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان، تحقيق حسن

عاصي، دار المناهل، بيروت، ١٩٩٢، ص ١١١.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٤، ص ٤٢٥، ٤٢٦. اقا بزرك الطهراني: الذريعة إلى

تصانيف الشيعة، ج ٢٠، ص ٨٨. أحمد بيرشك: كارنامه برزكان ايران، انتشارات

راديو، ١٣٤٠، ص ٣٧٥.

Martin Levey, Early Arabic Pharmacology , p35.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ٣، ص ٤٧. الصفدي: الوافي

بالوفيات، ج ٤، ص ١٨٤. شوكت الشطبي: اللب في الإسلام والطب، دمشق،

١٩٦٠، ص ٣١٧.

يحتاج إليه فى التغذية لكل واحد من سائر الأمراض، وكتاب الأسباب والعلامات، فى الأمراض الجزئية وأسبابها وعلاماتها وعلاجها، جمع فيه جميع العلل والأمراض الجزئية على سبيل الاستقصاء حتى لا يشذ منها علة مع أسبابها وعلاماتها، وأردف كل نوع بعلاج مجمل نقلا من كتب: القانون لابن سينا، ومن المعالجات البقرائية^(١)، وذكر فيه أن شفاء مرض البهاق شبه مستحيل، واهتم السمرقندى بعلاج الورم الناتج عن إصابات الجمجمة وأوضح فى كتاباته أسس العلاج^(٢) ويعرف هذا الكتاب بالنجيبات فى الطب وهو أجزاء، أما عن سبب شهرة هذا الكتاب فترجع إلى الفصل الذى نقله عنه نفيس ابن عوض الكرماني (٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) عن المالىخوليا^(٣) وله أيضا رسالة فى مداواة وجع المفاصل، ومقالة فى كيفية تركيب طبقات العين، وكتاب الإرشاد فى الطب النافع لجميع الأمراض، وكتاب الأغذية والأشربة للأصحاء، وكتاب الأغذية والأشربة للمرضى، وكتاب كامل الصناعة^(٤).

كان زين الكحال السمرقندى (ت بعد ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) من كبار أطباء العيون، قام بمداواة عين جنكيز خان من الرمد، وكان الكحال هذا مفرطا فى قبح الصورة وسوء العشرة^(٥).

(١) ابن أبى أصيبعة: المصدر نفسه، ج٣، ص٤٧. حاجى خليفة: كشف الظنون، مج١،

ص٧٧. أحمد عظمة الله: القاموس الإسلامى، ج٣، ص٤٩٦.

(٢) محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية فى العلوم الطبيعية والطب، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٤، ص٣١٧.

(٣) بول غليونجى وآخرون: موسوعة العلوم الإسلامية، ج٣، ص١١٠.

(٤) إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين، ج٢، ص١١٠. الزركلى: الأعلام، ج٦، ص٢٨٠. عمر رضا كحاله: المستدرک على معجم المؤلفين، ط٢، مؤسسة الرسالة،

١٩٨٨، ص٧٠٨، ٧٠٩.

(٥) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، ص٩٨.

مما تقدم نرى أن البيمارستانات الإسلامية كانت تسير بنظام وترتيب محكمين دقيقين حيث كان هنالك ناظر البيمارستان وناظر الوقف والمحتسب والساعور وبواسطة هؤلاء كانت أحوال البيمارستانات وما يجرى فيها منضبطة .

٤ - علم الصيدلة^(١)

الصيدلة أشرف الصنائع بعد الطب وهي آله لها عرفت بصناعة العطر والشراب^(٢)، وهي فن علمي يبحث في أصول الأدوية^(٣) سواء أكانت نباتية أم حيوانية أم معدنية، من حيث تركيبها وتحضيرها ومعرفة خواصها الكيميائية والطبيعية وتأثيرها الطبى وكيفية استحضار الأدوية المركبة منها. فتاريخ الصيدلة هو أذن نفس تاريخ الأدوية وطريقة استعمالها وحفظها^(٤). وقد ميز علماء الصيدلة في مدن الصغد في العصور الإسلامية بين نوعين من الأدوية:

(١) الصيدلة: لفظ معرب، أصله هندي جاء للعرب من الفرس وذلك من " جندل أو جندن" حيث قلبت الجيم صاداً فأصبحت صندل أو صندن، وهو خشب العطر المعروف الذي يجلب من الهند، إذ لم تكن العرب تفرد له أسماء أو تسمية فنقلوا هذا الاسم المعرب من مزاولى العطر إلى مزاولى الأدوية. البيروني: كتاب الصيدنة، تحقيق الحكيم محمد سعيد ورائنا إحسان إلهي، باكستان، ص ٦. عبد العزيز عبد الرحمن: تاريخ الطب والصيدلة والكيمياء عند قدماء المصريين، ص ٥. عبد العظيم حفى صابير وعبد الحلیم منتصر: موجز تاريخ الصيدلة من كتاب موجز تاريخ الطب والصيدلة لمحمد كامل حسين، ج ٢، ص ٢٧١ .

(٢) العطار الهاروني: منهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان، ص ٥.

(٣) الأدوية: عبارة عن مركبات كيميائية تستخدم إما لتغيير وظيفة من وظائف الجسم أو للقضاء على جرثومة ناقلة للعدوى، وهي تحدث تأثيرها بالتفاعل مع أجزاء من الخلايا قادرة على التجاوب معها تسمى مستقبلات الدواء . دوجلاس وباير: مبادئ علم الأدوية والعلاج، ترجمة زينب حلمى حسين، مؤسسة الأهرام، ١٩٧٨، ص ١.

(٤) شحاتة قناتى: تاريخ الصيدلة والعقاقير فى العهد القديم والعصر الوسيط، دار المعارف، القاهرة، ص ١١.

١ - الأدوية المفردة وتعرف باسم العقاقير، وهي التي تتكون من صنف واحد سواء كان هذا الصنف مصدره نباتي أو حيواني أو معدني .

٢ - الأدوية المركبة وتعرف باسم الاقربازين^(١) وهي الأدوية التي تتركب من أكثر من نوع واحد من العقاقير^(٢). أما الاصطلاح العربي صيدلي أو صيدلاني - الذي يبيع العقاقير الطبية ويركب الأدوية -^(٣) فهو على ما ذهب إليه البيروني: "المحترف لجمع الأدوية على أحد صورها واختيار الأجود

(١) اقربازين: كلمة يونانية الأصل معناها تركيب الأدوية، وطرق تحضيرها وفحصها وحفظها أى ما نطلق عليه في الوقت الحاضر اسم دستور الأدوية، وانتقلت إلى اللغة العربية عن طريق اللغة السريانية في صدر الدولة العباسية*. وتطور مفهوم هذه الكلمة في العصر الحديث فأصبح يطلق على العلم الذي يبحث في تأثير الأدوية في أجسام الكائنات الحية**.

* الفلانسى السمرقندى: اقربازين القلانسي، تحقيق محمد زهير البابا، حلب، ١٩٨٣، ص ٤، ٥. شحاتة قنوتى: المرجع نفسه، ص ١٢، ١٣. على الجمبلاطى وأبو الفتوح التوانسى: ابن البيطار الأندلسى، ص ١٥

** عبد العزيز حفى صابر وعبد الحليم منتصر: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٧٣.

(٢) العقاقير: مفردتها عقار، ومعناها أصول النبات، ثم اتسع بعد ذلك معنى هذه الكلمة فدللت على جميع أجزاء النبات أو الأعشاب المستعملة للعلاج، ثم ضمت الأدوية الحيوانية والمعدنية*. وهي كلمة مختلف في أصلها فيقول البعض إنها عربية من الفعل عقر، والعقار هو النبات الذى يعقر الإبل فى الصحراء بأن يسمها، ومن ذلك أطلق هذا اللفظ على النبات السام ثم عممه العرب على النباتات ذات الفوائد الطبية. وقيل إن عقار معربة، ولكن اختلف فى أصلها فالبعض قال إن عقار عبرية الأصل ومعناه أصول النباتات، وقيل إنها سريانية الأصل وتعنى أصل النبات وفرعه**.

* شحاتة قنوتى: تاريخ الصيدلة والعقاقير فى العهد القديم والعصر الوسيط، ص ١٢

** يوسف محمود: الإنجازات العلمية فى الحضارة الإسلامية، ص ١١٨.

(٣) على الجمبلاطى وأبو الفتوح التوانسى: ابن البيطار الأندلسى، ص ١٤.

من أنواعها، مفردة أو مركبة على أفضل التراكيب التي خلدها مبرزو أهل الطب^(١).

يرى البيروني أن كلمة صيدلاني تعريب لكلمة جندلاني بقلب الجيم صادًا، وكلمة جندن وصندل تدل على أفواه الطيب أو ينسبون الكلمة أيضا إلى الصندل، وفي كلتا الحالتين يظهر جليا أنها كانت تدل أصلا على أن الصيدلي هو الشخص الذي يجمع الأعشاب النافعة للتطبيب^(٢). وبلغت عناية العرب والمسلمين بالدواء وكيفية استنباطه واستخراجه واستعماله عناية بالغة، لذلك رأيناهم يهتمون بإدخاله في الإطار التطبيقي لنظام الحسبة الذي يقتضى بمراقبة نشاط الصيدلة في إنتاج الدواء^(٣).

أما عن أبرز الإسهامات في هذا المجال فكانت على يد بدر الدين محمد بن بهرام بن محمد القلانسي السمرقندي (ت. ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م) الذي يعد من كبار الصيادلة في عصره، له عناية بالغة بالنظر في معالجة الأمراض ومداواتها، وله كتاب الاقرباذين^(٤) وهو تسعة وأربعون بابا، استوعب فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأدوية المركبة، وجمع أكثر ذلك من الكتب المعتمد عليها كثيرا، مثل: الطب في القانون لابن سينا، والحاوي والمنصوري للرازي، والكامل لعلي بن العباس المجوسى، والذخيرة لثابت بن قره، والكفاية^(٥).

(١) البيروني: كتاب الصيدنة، ص ١. توفيق الطويل: العرب والعلم في عصر الإسلام

الذهبي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٤٢.

(٢) البيروني: المصدر نفسه، ص ٣.

(٣) بول غليونجي وآخرون: موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، ج ١،

ص ٢٤. على الجمبلاطى وأبو الفتوح التوانسى: المرجع نفسه، ص ٥٢.

(٤) العطار الهارونى: منهاج الدكان ودستور الأعيان فى أعمال وتراكيب الأدوية النافعة

للأبدان، ص ١١١.

(٥) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ج ٣، ص ٤٧. الصفدى: الوافى

بالوفيات، ج ٢، ص ٢٧٣. القلانسى السمرقندى: اقرباذين القلانسى، ص ٨.

يعتبر أقرباذين القلانسي من الناحية الصيدلية من أكمل ما كتب في موضوعه بجميع اللغات حتى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى. ولم يتقيد القلانسي السمرقندى بضم الأدوية المركبة فقط فى كتابة، بل خصص عددا من الأبواب من (١-١٤) فى مقدمة كتابه للكلام عن تهيئة وفحص وحفظ المواد الأولية المستعملة فى تحضير الأدوية المركبة وذلك اعتقادا منه أن ذلك يعتبر من الأعمال الأساسية التى يجب أن يقوم بها الصيدلى قبل البدء بتحضير الدواء المركب^(١). أما بقية الأبواب فقد خصص منها عشرين بابا للكلام عن الأشكال الصيدلية المعروفة، بالإضافة إلى أربعة أبواب تكلم فيها عن أدوية الرعاف - أدوية القيء - أدوية الزينة علاج من شرب السموم، وجملة هذه الأبواب تشابه ما ورد فى اقرباذين كل من سابور وابن التلميذ^(٢) وأخيرا هنالك بعض الإنجازات الصيدلية التى ورد ذكرها فى اقرباذين القلانسي منها:

- ١ - استعمل فى تحضير الأقراص الدوائية بعض اللعابات المصنوعة من حب السفرجل، بزر الكتان، بزر القطناء.
 - ٢ - أعطى للأقراص الدوائية التى توضع تحت اللسان شكلا مفرطحا تميزا لها عن بقية الأقراص.
 - ٣ - ذكر أقراصا تنفع فى الصداع والسهر تجعل على شكل مثلث تذاب عند الحاجة بماء ورق الخس أو الكزبرة الرطبة وتطلى على الصدغ^(٣).
- كما يعد أبو المحامد نجيب الدين محمد بن على بن عمر السمرقندى (ت٦١٩هـ/١٢٢٢م) من كبار علماء الطب والصيدلة، له مؤلفات كثيرة

(١) القلانسي السمرقندى: المصدر نفسه، ص ٩.

(٢) القلانسي السمرقندى: المصدر نفسه، ص ١٠.

(٣) القلانسي السمرقندى: المصدر نفسه، ص ١٠.

واهتم بالأدوية المركبة، ووضع فيها كتابه أصول تركيب الأدوية، وفيه بين أسباب وضرورات تركيب الأدوية وعدم تقديمها مفردة، ويستعرض مع الشرح صنوف الأدوية من أشربة ومعجونات وحبوب ومطبوخات وحقن وأضمدة وأطلية وغراغر ومريبات وأدوية للشعر، وهو يسوق لنا في كتابه طرق التحضير وأوزان ونسب العقاقير والمواد المستخدمة في التركيب، وأهم ما يلفت النظر في هذا الكتاب هو عناية السمرقندي فيه بالتجربة والقياس على التجارب السابقة للوصول إلى الاستعمالات المأمونة^(١)، ومن مؤلفاته أيضا كتاب إبدال الأدوية، وكتاب الإبدال من المعاجين والأقراص، والأدوية المفردة، وكتاب أدوية القلب وما يتعلق به، وكتاب الأدوية المفردة المستعملة وخواصها وأفعالها^(٢) وكتاب اقرباذين السمرقندي ويتألف هذا الكتاب من عشرين بابا، صنفت فيه الأدوية على ترتيب العلل^(٣). ويعتبر هذا الاقرباذين نموذجاً لكتب الوصفات الطبية المعروفة في الوقت الحاضر^(٤).

يجدر الإشارة هنا إلى أن الصيدلة والطب كانتا متلازمتين دائما في جميع العصور الأولى في مدن إقليم الصغد، وكان الشخص الواحد يقوم

(١) عبد الفتاح مصطفى غنيم: ميادين الحضارة العربية الإسلامية وأثارها في الحضارة الإنسانية، ج ٢، مطابع جامعة المنوفية، ١٩٩٤، ص ١٨٩. محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية في العلوم الطبيعية والطب، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٣١٠، ٣١١.

(٢) عمر رضا كحالة: المستدرک علی معجم المؤلفین، ص ٧٠٨. كوركيس عواد: مصادر النباتات الطبية عند العرب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٦، ص ٩٢ صلاح الدين المنجد: مصادر جديدة عن تاريخ الطب عند العرب، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٥، ج ١، ١٩٥٩، ص ٣٠٤، ٣٠٦.

(٣) Martin Levey, Early Arabic Pharmacology, p35.

(٤) القلانسی السمرقندی: اقرباذین القلانسی، ص ٧.

بفحص المرضى وتشخيص أمراضهم ثم يقوم بنفسه بتحضير الأدوية الخاصة بعلاجهم، وكانت علوم الطب والصيدلة تدرس مترافقة في المدارس نفسها دون تحديد لأيهما^(١).

فالتب والصيدلة إذن صناعتان مختلفتان، إلا أنهما متكاملتان، والطيب الجيد الماهر هو الذى يكون فى نفس الوقت صيدلانيا ماهرا، يجيد معرفة قوى الأدوية وخصائصها المخصوصة بها وأفعالها ومنافعها ومضارها ومناسبتها والمختار منها وإبدالها، ويجيد فن تركيبها، ولقد كان التأليف فيها فى الغالب جزءا من التأليف فى الطب العام^(٢).

غلبت هذه النزعة إلى المزج بين صناعتى الطب والصيدلة فى مدن إقليم الصغد فى الفترة التى نتحدث عنها، فمعظم الأطباء كانوا صيادلة كما أسلفنا، إلا أن الجانب الطبى التطبيقى كان أغلب، فغلبت شهرة أهل هذه الصناعة فى هذه الفترة على أنهم أطباء لا صيادلة والفصل بين "بيت الوصف" - العيادة - و"بيت الصرف" - الصيدلية - كان أبرز. وخاصة فى البيمارستانات التى كانت الصيدليات فيها قائمة مستقلة عن قاعات المرضى، أى قاعات العلاج وكانت تحت إشراف صيادلة متخصصين، والدليل الذى عندنا على كون أطباء ذلك العصر صيادلة أيضا هو التأليف التى وضعها عدد منهم فى الصيدلية، أى فى الأدوية المفردة والمركبة^(٣).

(١) عبد العظيم صابر وعبد الحليم منتصر: موجز تاريخ الصيدلة، ج٢، ص٣١٤.

(٢) إبراهيم بن مراد: بحوث فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص ٢٤٨، ٢٤٩.

(٣) إبراهيم بن مراد: بحوث فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص ٢٤٩.

٥ - علم النبات

علم يبحث فى خواص نوع النبات وعجائبيها وأشكالها ومنافعها ومضارها، وموضوعه معرفة نوع النبات وفائدته ومنفعته للتداوى به^(١). كان النبات ومازال قوام الغذاء والدواء، ولذلك أبدعه الخالق وجعله بحكمته أجناسا وأصنافا وألوانا يختلف بعضها عن بعض، وتتغير فيما يشه الله فيها من قوى وأودعه فى كيانها من خواص بحسب تركيبها الفسيولوجى والكيمائى والبيولوجى لتنقية الأهوية وتغذية الأبدان ومداواة أسقامها، وهى مع ذلك تبهج العين وتطيب النفس وتزين المحيط الطبيعى وتملأه حياة وجمال^(٢).

عنى الإنسان منذ قديم الزمن بمعرفة النبات وأستقصاء أحواله واستكشاف أسرارها واستنباط خواصه ومنافعه لحفظ حياته ومداواة أسقامه، وتناولت القرون اللاحقة تجارب القرون السالفة فى ذلك، فتراكمت المعارف حتى صار علم النبات قائما بذاته، وأسهم علماء المسلمين فى تطور هذا العلم^(٣). واشتغل علماء مدن الصغد فى النبات واستخرجوا منه مواد كثيرة للطب والصيدلة وعطور كثيرة كالزعفران والكافور، كما أدخلوا جملة من المواد الطبية فى العقاقير والمفردات الطبية^(٤).

و شاء الموقع الجغرافى الذى تمتعت به مدن إقليم الصغد أن تكون مركزا أساسيا للتجارة العالمية، فهى ملتقى للطرق التجارية الكبرى، لذلك فإن

(١) عمر رضا كحالة: العلوم البحتة فى العصور الوسطى، ص ٢٨٢.

(٢) مجهول المؤلف: عمدة الطيب فى معرفة النبات، الأغذية والأدوية عند مؤلفى العرب الإسلامى، تحقيق محمد العربى الخطابى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٩٠، ص ٣٩.

(٣) مجهول المؤلف: المصدر نفسه، ص ٣٩.

(٤) عمر رضا كحالة: المرجع نفسه، ص ٢٨٢.

أعشابا ونباتات طبية وعقاقير من أصل حيوانى لم يعرفها طيب من القدماء قد أتت من الصين والهند وأفريقيا، وكان من الطبيعى أن يعرف أصحاب الاختصاص ما لهذه الأعشاب الشرقية من قوة شفائية ساحرة، فاستعملوها كعقاقير طبية وجربوها ووضعوا تجاربهم ونتائجها فى كتب خاصة بعلم الاقرباذين^(١) كاقرباذين القلانسي واقرباذين السمرقندى، ومن هذه النباتات القرفة التى كانت تزرع فى سمرقند ولعبت دورا مهما فى الاقرباذين، حيث كانت أوراقها عنصرا من العناصر التى تدخل فى تركيب الترياق، كما كانت أزهارها وأوراقها تحتوى على زيت أثيرى^(٢).

كما أدخلت إلى العقاقير العربية القديمة مواد طبية مجهولة كالكافور والعنبر^(٣) والراوند - جذر نبات - وكان علماء سمرقند يعرفونه تمام المعرفة، وكان يأتى من الصين، وكانت القوافل تحمله وتتوقف فى سمرقند؛ لتركب جزءا من حملتها فى أسواقها^(٤). والزنجبيل الذى كان يباع فى أسواق سمرقند وكان واردا من الصين والهند، وكان على شكلين إما أخضر، وإما محفوظا بمعالجته بالسكر، وكان الهنود يعدون منه مستحضرات محفوظة عرفها العرب باسم زنجبيلية، وكان العطارون يصنعون معجوننا معظمه من الزنجبيل، كما كان يستعمل فى الطهى ويدخل فى تحضير الأنبذة المتبلية^(٥) والترنجبين - زهرة جوزة الطيب - وكان يباع فى أسواق سمرقند^(٦) والقنب

(١) حميد مورانى وعبد الحليم منتصر: قراءات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص ٦٨، ٦٩.

(٢) هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى، ج٤، ص ١٠٠، ١٠١.

(٣) حميد مورانى وعبد الحليم منتصر: قراءات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص ٦٨، ٦٩.

(٤) هايد: المرجع نفسه، ج٤، ص ١٧٣.

(٥) هايد: المرجع نفسه، ج٤، ص ١٢٢، ١٢٥، ١٢٦.

(٦) هايد: المرجع نفسه، ج٤، ص ٣٦.

الذى تشتهر به سمرقند وهو مخدر يقطع الطرف ويسكن بتخديره الأوجاع،
ودهنه دواء لوجع الأذن من البرودة^(١).

ومما لاشك فيه أن المسلمين فى مدن الصغد كشفوا بطول البحث
والتجربة عن مزايا جملة صالحة من تلك النباتات، وعرفوا ما لها من أثر فى
اكتساب الصحة ودفع المرض، وأبانوا عن وجوه استعمالها فى ما يتتاب جسم
الإنسان من أمراض فتوصلوا إلى حقائق جديرة بالعبارة والتدبر^(٢).

٦ - علم الكيمياء

هو علم يراد به سلب الجواهر المعدنية خواصها، وإفادتها خواصا لم
تكن لها^(٣)، والاعتماد فيه على الفلزات كلها مشتركة فى النوعية،
والاختلاف الظاهر بينهما إنما هو باعتبار أمور عرضية يجوز انتقالها^(٤). ولفظ
الكيمياء عبرانى معرب، أصله " كيم يه " ومعنى ذلك أنه من الله^(٥). وقيل
إن أصله عربى، واشتقاقه من كىمى إذا ستر وأخفى، ويقال كىمى
الشهادة يكميها إذا كتمها، وكان متحلوا هذه الصناعة يراعون فيها قاعدة
الستر والإخفاء^(٦) وأطلق العرب على الكيمياء أسماء متعددة بعضها راجع فى
أغلب الأمر إلى طبيعة الموضوع، وبعضها راجع إلى منهجهم فى البحث أو
أغراضهم التى استهدفوها منه، فمن هذه الأسماء: علم الصنعة، صنعة
الكيمياء، صنعة الأكسير، علم الحجر، علم التدبير، علم الميزان^(٧).

-
- (١) القزوينى: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص ٢١٥.
 - (٢) كوركيس عواد: مصادر النباتات الطبية عند العرب، ص ٤، ٣.
 - (٣) طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ج ١، ص ٣٤٢.
 - (٤) عمر رضا كحالة: العلوم البحتة فى العصور الوسطى، ص ٢٤٦.
 - (٥) طاش كبرى زاده: المصدر نفسه، ص ٣٤١. عمر رضا كحالة: المرجع نفسه، ص ٢٤٦.
 - (٦) حكمت نجيب عبد الرحمن: دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص ٢٣٩. روحى
الحالدى: الكيمياء عند العرب، دار المعارف، القاهرة، ص ١٠.
 - (٧) مصطفى لبيب عبد الغنى: الكيمياء عند العرب، دار الكتاب للطباعة، القاهرة، ١٩٦٧،
ص ٢٨.

وكان لعلماء مدن الصغد الفضل في تطور علم الكيمياء من الأبحاث النظرية إلى التطبيقات العملية، حيث كان تطبيق علم الكيمياء في الصيدلة من أهم الفوائد التي حققها هؤلاء العلماء^(١) فقد عرفوا أسرار المداواة بالعقاقير الطبية من نباتية وحيوانية ومعنوية. واكتشفوا عددا كبيرا من النباتات الطبية والعطرية واستخدموها كأدوية مفردة أو في تركيب الأدوية المركبة، وظلت العقاقير الطبية أساس العلاج^(٢) وادخلوا في الطب استعمال السنا المكي والكافور والمسك وجوز الطيب والقرفة وغيرها، وهم الذين اخترعوا الأشربة والكحول والخلاصات العطرية^(٣).

جمع القلانسي السمرقندي في الأبواب الأربعة عشر الأولى من كتابه اقرباذين القلانسي كل ما قيل عن التقاط وادخار العقاقير النباتية وتحضير الأدوية المفردة المعدنية من غسل وإحراق وقلّي وتكليس وشي، ثم أتبعها الكلام عن تحضير بعض الأدوية المهيأة كعمل الأدهان الطبية واستخراج الأدهان النباتية وغسلها، وطبخ السرطانات واستخراج عسل البلاذر ولبن الشبرم. ودخان الكندر، وتحضير ماء الجبن وتطرية العود، وإصلاح الدبق والذرايح وغيرها. إن مجموع هذه الأبحاث يعتبر النواة الرئيسية لعلم حديث ظهر في أوروبا في نهاية عصر النهضة، وهو علم الكيمياء الصيدلانية^(٤).

كما توصلت الدراسات الكيميائية إلى صناعة المستحضرات الكمالية مثل زيت الورد والبنفسج والدهون والمراهم ومستحضرات الزينة والعطور^(٥)

(١) عبد العزيز عبد الرحمن: تاريخ الطب والصيدلة والكيمياء، ص ٢٦٨. ماهر عبد القادر

محمد: دراسات وشخصيات في تاريخ الطب العربي، ص ٤٦٨.

(٢) محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية، ص ٣٢.

(٣) شوكت الشطبي: اللب في الإسلام والطب، ص ٢٤١، ٢٤٢.

(٤) القلانسي السمرقندي: اقرباذين القلانسي، ص ١٠.

(٥) وليم الخازن: الحضارة العباسية، ط ٢، دار المشرق، بيروت، ص ١٢١.

واستخراج الروائح من الأزهار، التي هي محاليل كؤلية لمواد عطرية من أصول نباتية كالأزهار والثمار والأوراق والبذور، ولكن أغلبها من الزهور ويقومون باستخراج الكؤل، وكان ذلك يستلزم معرفة طرق التقطير، ويأتي بعد الكؤل لامتناس وحفظ الروائح من الدهن والزيت. وهذه الخاصية الأخيرة لا تزال تستعمل حتى اليوم، فإما توضع أوراق الزهور طبقات بعضها فوق بعض تتخللها طبقات من الدهن^(١) وإما أن تنقع الزهور في الزيت ثم يستخرج العطر بعد ذلك بالكؤل. وكانت سمرقند مشهورة بعطرها من الحبق الريحاني^(٢) والشاهسفرم - ملك الرياحين -^(٣).

اتخذت مستحضرات الزينة للنساء أهمية عظيمة. كما كثر استعمال القنب والأفيون في العالم الإسلامي حرقا وتدخيناً، وهنأ من النباتات النومة المستعملة في ضروب السحر^(٤). وعرفوا حامض الكبريتيك، وحامض النتريك والكحول، وسار علماء مدن الصغد في علم الكيمياء على أساس التجربة، مما دفع هذا العلم خطوات فاصلة إلى الأمام ومكنهم من إضافات هامة إلى الكيمياء^(٥) فكشفوا القلويات والنوشادر والزئبق ونوات الفضة^(٦)

(١) عبد العزيز عبد الرحمن: تاريخ الطب والصيدلة والكيمياء، ص ١٨٤.

(٢) ريسلر: الحضارة العربية، ص ١٢٤

(٣) الشاهسفرم: تسميه العرب الضيمران والضموران، وهو نوع من الحبق دقيق الورق جدا يكاد يكون الذاب عطر الرائحة. ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، مج ٣، القاهرة، ١٢٩١، ص ٥٠. الثعالبي: لطائف المعارف، ص ٢٣٩. السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج ٢ ص ٢٩١. الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص ٤٣. رمزي مفتاح: إحياء التذكرة في النباتات الطبية والمفردات العطارية، القاهرة، ١٩٥٣، ص ٣٨٦.

(٤) وليم الخازن: المرجع نفسه، ص ١٢١

(٥) عمر رضا كحالة: العلوم البحتة في العصور الوسطى، ص ٢٧٤، ٢٧٥.

(٦) الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص ٥٤٣. لطائف المعارف، ص ٢١٩.

كما عرفوا عمليات التصعيد والترشيح والتذويب والتبلور والتكليس والتقطير، وعرفوا أيضا الصودا الكاوية و كربونات الصوديوم و كربونات البوتاسيوم وغيرها مما تقوم عليه الصناعات الحديثة^(١) ومن ثم استفاد علماء الصغد من مباحثهم الكيميائية في الصناعة واستعانوا بها على تحضير كثير من الأملاح والمركبات والأحماض التي عرفوها لأول مرة في تاريخ البحث الكيميائي، وكان لها أكبر الأثر وأنفعه^(٢).

كما يظهر مدى التقدم الذي أحدثه علماء الصغد في الكيمياء الصناعية، في المهارة العظيمة التي أبداهها صناعتهم الفنيون في الصباغة التي أوجدوها لتلوين الأنسجة والفسيفساء، وصناعة الأواني الفخارية. وكانت هذه الأصباغ ثابتة حافظت على رونقها^(٣) وبلغت صباغة الأقمشة درجة كبيرة، وكانت مواد الصباغة تعتمد قديما على المواد النباتية كالنيلة الزرقاء^(٤) والحيوانية كدودة القز ودودة القرمز^(٥) إلا أن رخص أثمان الأصباغ الكيميائية من قطران الفحم الحجري، وسهولة استعمالها أدى إلى انتشار الصبغات الكيميائية^(٦) واشتهر أحمد بن عبد الله بن يوسف بن الفضل السمرقندي الصبغى (ت ٥٢٦هـ/ ١١٣١م) بأنه كان من الصباغين الماهرين، وكان من كبار الفقهاء يعمل في الدار الجوزجانية^(٧).

(١) عمر رضا كحالة: المرجع نفسه، ص ٢٧٤، ٢٧٥. نبيل صبحى حنا: التراث الطبى العربى، ص ٤٤.

(٢) مصطفى لبيب عبد الغنى: الكيمياء عند العرب، ص ٤٨.

(٣) ريسلر: الحضارة العربية، ص ١٢٤.

(٤) صالح أحمد العلى: ألوان الملابس العربية فى العهود الإسلامية الأولى، مجلة المجمع العلمى العراقى، مج ٢٧، ١٩٧٦م، ص ٧٨.

(٥) سعاد ماهر: الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٦، ص ١٧٦.

(٦) زين الخويسكى: معجم الألوان فى اللغة والأدب والعلم، بيروت، ١٩٩٢، المقدمة. سعاد ماهر: الكليم، مطبعة المعرفة، ص ١١.

(٧) القرشى: الجواهر المضية، ج ١، ص ١٨٥. تقى الدين التميمى: الطبقات السنوية، ج ١، ص ٣٧٢.

كما اشتهر علماء الصغد بصناعة الخزف والأحبار والدهانات^(١) وصناعة الزجاج حيث جلب علماء سمرقند الأدوات الزجاجية المختلفة إلى مختبراتهم واستعمل الكاثنى فى عملية التقطير فرنا خاصة تتجدد فيه مواد الاحتراق تلقائيا وثبت الأنايب الداخلة بعضها ببعض بواسطة قطع القماش^(٢) واستخدموا نفس الطريقة القديمة التى تتمثل فى صهر الرمل - أو أكسيد السليكون - بعد خلطه بنسب معينة من الحجر الجيرى - كربونات الكالسيوم - بالإضافة إلى نسب من كربونات الصوديوم وأكاسيد أخرى ثم تشكيله بواسطة النفخ^(٣).

ويبدو لنا مقدار معارفهم فى الكيمياء الصناعية من حدقهم استخراج المعادن وصناعة الفولاذ، وكان لصناعاتهم تفوق عظيم بفضل معارفهم العلمية الكيميائية، فكانوا يعلمون استغلال مناجم الكبريت والنحاس والحديد والذهب^(٤) ودباغة الجلود. واشتهر الشيخ أبو على الحسين بن أبى زيد منصور الصغدى الدباغ (ت ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م) بأنه كان من أمهر الدباغين فى عصره^(٥).

فضلا عن ذلك كانت طرق الصناعة مختلفة ومعقدة مما يدل على أن أدواتهم كانت كثيرة ومتنوعة كما يثبت تمرسهم فى علم الكيمياء وفهمهم التام لخواص المعادن والفلزات وأكاسيدها وتفاعلها مع الحرارة^(٦) وعرف علماء

(١) دونالد هيل: العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية، ص ١١٠.

(٢) حميد مورانى وعبد الحلیم منتصر: قراءات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص ٧٤، ٧٣.

(٣) حسن الباشا: الفن عند الشعوب الإسلامية، مجلة الدارة، العددان ٣، ٤، ١٩٧٦م، ص ١٥٤.

(٤) حميد مورانى وعبد الحلیم منتصر: قراءات فى تاريخ العلوم عند العرب، ص ٧٣، ٧٤.

مصطفى لبيب عبد الغنى: الكيمياء عند العرب، ص ٥٠.

(٥) ابن الجوزى: المنتظم، ج ٨، ص ٢٢٨.

(٦) سعاد ماهر: الفنون الإسلامية، ص ١٢٣. محمد السويسى: العلوم والاستكشافات

ودورها فى تطوير الصناعات والفنون، الفن العربى الإسلامى، ج ١، تونس، ١٩٩٤م،

ص ٩٩.

الصغد الكيمياء بمعناها التحويلي: الخيمياء وفكر بعضهم باكتشاف الحجر الفلسفى الذى يحول المعادن إلى ذهب^(١).

وبين الاختراعات التى أفادت الصناعة فائدة كبرى صناعة الورق من القطن أو الكتان أو الخرق فقد فتح عصرا جديدا للحضارة، فإن نشر الكتاب بأسعار رخيصة وانتشار التعليم بين عامة الناس لم يصبحا أمرين ميسورين إلا بعد أن استبدل أهل سمرقند الورق العادى بدلا من الرقاق التى كان يستخدمها العالم قديما والأوراق الحريرية^(٢).

وتعتمد طريقة تصنيع الكاغد على أخذ القنب الأبيض - نوع من الألياف ويقال إن الأصل النباتى لهذه الألياف هو ما يعرف بالتيل - ثم يبيل ويسرح بالمشط حتى يلين، ثم تؤخذ ماء الجير فينقع فيها ليالى ثم يفرك باليد، ويبسط فى الشمس حتى يجف ثم يعاد فى الليل ويوضع فى ماء جير جديد، ويترك للصباح، ثم يفرك ويبسط فى الشمس حتى يجف، وتتم هذه العملية لمدة ثلاثة أيام أو أكثر، ويفضل أن يبدل ماء الجير مرتين يوميا، حتى يبيض لون القنب ثم يقرض بالمقراض، وينقع فى ماء عذب لمدة سبعة أيام، مع مراعاة تبديل الماء يوميا، فإذا ذهب منه الجير، يدق فى الهاون دقا ناعما وهو ندى، حتى يلين ولا يبقى به شىء من العقد، ثم يوضع فى ماء جديد فى إناء نظيف ويحلل به، حتى يصير كالحرير، ثم يعمد إلى قوالب تشكيل الورق، والتى تكون ذات عرض وطول يرتضيه الصانع، ويكون بها فتحات ويوضع بها ذلك القنب بعد أن يتم ضربه فى إناء، ويغط القالب فى الماء

(١) حسن محمد الشرقاوى: المسلمون علماء وحكماء، دار المعرفة، الإسكندرية، ١٩٨٦م، ص ١٨٧. روم لاندو: الإسلام والعرب، ص ٢٧١. عمر رضا كحالة: العلوم البحتة فى العصور الوسطى، ص ٢٤٦. فهمى متى إسحاق: الكيمياء والكيميائيون، ج١، الإسكندرية، ١٩٤٧م، ص ٧٩. ويلز: موجز تاريخ العالم، ص ٢٠٨.

(٢) ماهر عبد القادر محمد: دراسات وشخصيات فى تاريخ الطب العربى، ص ٤٦٨.

ويحرك باليد برفق على وجه القالب، حتى لا يكون به موضع سميك وآخر رقيق، ثم يقلب ما على القالب على لوح ويلصق على حائط نظيف أملس، ويترك حتى يجف ويسقط ثم يؤخذ هذا الخليط ويطلّى به الورق من الوجه الأول ثم يؤتى بلوح ويرش بالماء ويجفف قليلا ويضع عليه، ليطلّى به الوجه الآخر. ولسقى الكاغد وتنشيته يغلى أرز ويطحخ في طنجير نظيف ثم يصفى ويسقى به الورق. ولتعتيق الكاغد يؤخذ طنجير نحاس يصب فيه عشرة أرتال ماء عذب ويحمل على النار ويطحخ فيه نشا جيد ويغلى حتى ينقص من الماء مقدار إصبعين ويوضع فيه بعض الزعفران بقدر ما يحتاج إليه من تلوينه، ثم يصب في طست واسع ويغمس فيه الورق غمسا رقيقا لكي لا يتقطع، وينشر على خيط دقيق في الظل، ثم يقلب كل ساعة لكي لا يلتصق، فإذا جف يصقل بمصاقل الزجاج، هكذا لم يهمل علماء الصغد أمر التطبيقات الصناعية مع قيامهم بمباحثهم النظرية^(١).

ويعد التغيير الكبير الذي نال الورق في سمرقند على أيدي المسلمين حادثا مهما في تاريخ العالم^(٢). وظلت سمرقند وقتا طويلا المدينة الهامة المنتجة للورق الجيد، وأصبحت منذ تركزت فيها صناعة الكاغد من المدن الكبيرة المنزلة في بلاد ما وراء النهر، وفي أنحاء البلاد الإسلامية^(٣) ولم تلبث

(١) هالة شاكر: الورق والوراقة، ص ١١٩، ١٢٠.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٣٦٦. عبد الله بن العباس الجراري: تقدم العرب في العلوم والصناعات وأستاذتهم لأوربا، ص ٢١٣.

(٣) مرتضى راوندی: تاريخ اجتماعی ایران، بخش دوم، جلد هشتم، جابخانه نوبهار، ١٣٧٤، ص ١٠٣.

Annemarie Schimmel, Calligraphy and Islamic Culture, p14. Vladimir Minorsky, The Turks Iran and the Caucasus in the Middle Ages, p282. David Roxburgh, on the Trans Mission and Reconstruction of Arabic Calligraphy Ibn al Bawwab and History, Studia Islamic, vol, 96, p41

أن اتسعت دائرة إنتاج الكاغد وتصنيعه فلم يعد قاصرا فقط على سمرقند،
تعددت مراكز تصنيعه وانتشرت في أنحاء شتى (١).

(١) محمد حسنى عبد الوهاب: البردى والرق والكاغد فى افريقية التونسية، مجلة معهد
المخطوطات العربية، مج ٢، ج ١، ١٩٥٦، ص ٤٥.

Parter , The Art of Book Making the Splendour of Iran Islamic Period,p14. Sedgwick
and Tyler , A Short History of Science ,p196. Skhuda Bukhsh , the Arab Civiliza-
tion , p77 . Rebert Blake , The Circulation of Silver in the Moslem East down to the
.Mongol Epoch Harvard Journal of Asiatic studies, vol ,2, no 3/4 , 1937. p296